بسم الله الرحمن الرحيم

قصص النبيين

الجزء الرابع

تأليف

ابو الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله

مجلس نشریات اسلام
۱۔ کے۔۳ ناظم آباد مینشن ۔ ناظم آباد ۱ کراچی ۷۴۶۰۰

قصص النبيين

الجزء الرابع

تأليف

أبو الحسن علي الحسني الندوي

مجلس نشریات اسلام

۱۔کے۔۳ ناظم آباد مینشن ○ ناظم آباد ۱ ○ کراچی ۱۸

نام کتاب ——— قصص النبیین (چہارم)

تصنیف ——— ابوالحسن علی الحسنی ندوی رحمۃ اللہ علیہ

طباعت ——— احمد برادرز پرنٹرز. کراچی

اشاعت ——— ۲۰۰۸ء

ضخامت ——— ۸۴ صفحات

ٹیلیفون

۶۶۰۱۸۱۷

اسٹاکسٹ: مکتبہ ندوہ قاسم سینٹر اردو بازار، کراچی

فون ۲۶۳۸۹۱۷

ناشر

فضل ربی ندوی

مجلس نشریاتِ اسلام ۱-کے-۳ ناظم آباد مینشن، ناظم آباد، کراچی ۴۶

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله وسلامٌ علىٰ عباده الّذين اصطفىٰ.

أمّا بعد، فإنّ كاتب هذه السّطور يحمدُ اللهَ علىٰ أنّه وفّقه ليعود إلى سلسلة «قصص النّبيّين للأطفال»، بعد فترة طالت مدّة ثلاثين سنةً، فقد كانت بداية هذه السلسلة في سنة ١٣٦٣هـ-١٩٤٤م، وإتمامها علىٰ الجزء الثالث المشتمل على قصّة سيّدنا موسىٰ - عليه وعلى نبيّنا الصّلاة والسّلام - في سنة ١٣٦٥هـ-١٩٤٦م، ثم شُغلَ المؤلّف بأعمال كتابيّة تأليفيّة أخرىٰ، ورحلات طويلة متوالية، صرفته عن إتمام هذه السّلسلة الّتي رزقها الله قبولاً عظيماً في حلقات التّعليم والمدارس الشّعبيّة والحكوميّة في شبه القارة الهنديّة والبلاد العربيّة، وصدرت لها طبعاتٌ في القاهرة وبيروت.

وألحّ بعض رجال التّعليم والتربية وقادة الفكر

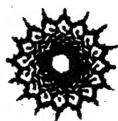
علىٰ إتمام هذه السّلسلة بقصص مَن بَقيَ منَ الأنبياء بعد سيّدنا موسىٰ ، وإكمالها بقصّة خاتم النّبيّين صلوات الله وسلامه عليه ، فهي مسك الختام ، ونهاية المطاف ، ورأَوا أنَّ هذا العمل أفضل وأجدى من كثير ممّا يشغل المؤلِّفَ ومن الموضوعات الّتي يُعالجها ، وكان المؤلِّف يشعرُ في بعض الأحيان بأنّ الأمر ما عادَ سهلاً له ، لبعد العهد به ، وأنّه يصعب عليه أن ينزل إلى مستوى الأطفالِ وأسلوبهم واللّغة الّتي يفهمونها ، ولكنّ الله يَسّرله هذه المهمّة ، فَوضَعَ الجزء الرّابع في شهر رمضان سنة ١٣٩٥هـ ، وهوالّذي بين يدي القراء ، ثم وفّقه اللهُ لوضع الجزء الخامس المشتمل علىٰ السّيرة النّبويّة علىٰ صاحبها الصّلاة والسّلام ، وسيَلي هذا الجزء إن شاءَ الله ، والحمد لله الّذي بعزّته وجلاله تتمّ الصّالحات ، والصّلوٰة والسّلام علىٰ خير خلقه محمد صلى الله عليه وسلم .

أبو الحسن علي الحسني النّدوي
دار العلوم ندوة العلماء - لكهنؤ (الهند)
١٦/ شوال سنة ١٣٩٦هـ

التَّنبِيهُ

نرجو حضرات القراء الانتباه للرموز التالية أثناء قراءتهم لهذا الكتاب .

الحركات في الحروف المشدَّدة تكون مع التشديد، فمثلا: الفتحة في التشديد تكون فوقه، كما تراها فوق حرف «الصاد» في كلمة «قِصَّة». والكسرة تكون تحت التشديد، كما تراها في كلمة «سيِّد». والضمَّةُ تكون فوق التشديد، كما تراها على حرف «اللّام» في كلمة «كُلُّ» في جملة «هُوَكُلُّ مَا حَكَاهُ اللّٰهُ فِي الْقُرْآنِ» .



بسم الله الرحمن الرحيم



قِصَّةُ سَيِّدِنَا شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَام

١- نَظْرَةٌ عَلَى الْقِصَصِ السَّابِقَةِ

قَرَأْتُمْ قِصَّةَ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وَسَيِّدِنَا يُوسُفَ، وَقَرَأْتُمْ قِصَّةَ سَيِّدِنَا نُوحٍ وَسَيِّدِنَا هُودٍ وَسَيِّدِنَا صَالِحٍ، قَرَأْتُمْ قِصَّةَ سَيِّدِنَا مُوسَى فِي شَيْءٍ مِنَ التَّفْصِيلِ وَالتَّطْوِيلِ، قَرَأْتُمْ كُلَّ ذٰلِكَ بِشَوْقٍ وَرَغْبَةٍ، وَإِجْلَالٍ وَتَقْدِيرٍ، وَحَلَّتْ فِي نُفُوسِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ مَحَلَّ الْقِصَصِ الْحَبِيبَةِ الْأَثِيرَةِ، وَوَعَتْهَا ذَاكِرَتُكُمْ، وَذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُكُمْ، وَقَدْ رَآكُمُ النَّاسُ تَحْكُونَهَا لِإِخْوَتِكُمُ الصِّغَارِ، وَتُرَدِّدُونَهَا لِلْأَبَوَيْنِ وَالْإِخْوَةِ الْكِبَارِ، وَأَنْتُمْ تَتَذَوَّقُونَهَا، وَقَدْ تَتَحَمَّسُونَ فِي حِكَايَتِهَا.

٢- قِصَّةُ صِرَاعٍ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ

وَلَا غَرَابَةَ؛ فَإِنَّهَا قِصَصٌ شَائِقَةٌ مُثِيرَةٌ، وَإِنَّهَا قِصَّةُ صِرَاعٍ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَبَيْنَ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ، وَبَيْنَ النُّورِ

وَالظَّلَامِ ، وَبَيْنَ الْإِنسَانِيَّةِ وَالْوَحْشِيَّةِ ، وَبَيْنَ الْجَزْمِ وَالْيَقِينِ، وَالظَّنِّ وَالتَّخْمِينِ .

ثُمَّ إِنَّهَا قِصَّةُ انْتِصَارٍ لِلْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَالْعِلْمِ عَلَى الْجَهْلِ ، وَالضَّعِيفِ عَلَى الْقَوِيِّ ، وَالْقَلِيلِ عَلَى الْكَثِيرِ ، قِصَّةٌ فِيهَا عِلْمٌ وَحِكْمَةٌ ، وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى ، وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» .

٣- وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا

وَلَيْسَ مَا حَكَيْنَاهُ لَكُمْ مِنْ قِصَصِ النَّبِيِّينَ ، هُوَ كُلَّ مَا حَكَاهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ مِنْ قَصَصِهِمْ وَحِكَايَاتِهِمْ ، فَفِي الْقُرْآنِ قِصَصٌ غَيْرُ هَٰذِهِ الْقِصَصِ .

فِيهِ قِصَّةُ نَبِيِّ اللَّهِ شُعَيْبٍ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَىٰ مَدْيَنَ وَأَصْحَابِ الْأَيْكَةِ ، وَهُمْ أَصْحَابُ تِجَارَةٍ وَسِلَعٍ. فَقَدْ كَانُوا عَلَى الْجَادَّةِ التِّجَارِيَّةِ الْكَبِيرَةِ بَيْنَ الْيَمَنِ وَالشَّامِ

وَبَيْنَ الْعِرَاقِ وَمِصْرَ، عَلَىٰ سَاحِلِ الْبَحْرِ الأَحْمَرِ.

كَانُوا يُشْرِكُونَ بِاللهِ غَيْرَهُ، كَمَا كَانَتْ أُمَمُ الأَنْبِيَاءِ فِي كُلِّ عَصْرٍ، وَكَانُوا - زِيَادَةً إِلَىٰ ذٰلِكَ - يَنْقُصُونَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، وَيُطَفِّفُونَ فِي الْكَيْلِ، وَيَتَعَرَّضُونَ لِلْقَوَافِلِ، فَيَتَوَعَّدُونَهَا وَيُخِيفُونَهَا، وَيَعِيثُونَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً، شَأْنَ الأَغْنِيَاءِ الأَقْوِيَاءِ، الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ حِسَاباً وَلَا يَخْشَوْنَ عَذَاباً.

فَبَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمْ رَسُولَهُ شُعَيْباً يَدْعُوهُمْ وَيُنْذِرُهُمْ، وَيَقُولُ لَهُمْ: «يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ط وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيٓ أَرٰىكُمْ بِخَيْرٍ وَّإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ٥ وَيٰقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ».

٤- دَعوة شُعيب عليه السلام

وَيَنْبَسِطُ لَهُمْ فِي الْكَلَامِ وَيَحُلُّ عُقْدَةً فِي نَفْسِهِمْ، وَهِيَ عُقْدَةُ حُبِّ الْمَالِ وَالزِّيَادَةِ، فَيَقُولُ:

إِنَّ مَا يَفضُلُ لَكُمْ مِنَ الرِّبْحِ بَعْدَ وَفَاءِ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالظُّلْمِ وَالْخِيَانَةِ ، وَ إِذَا نَظَرْتُمْ فِي حَيَاتِكُمْ وَفِي حَيَاةِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَثْرَوْا وَ جَمَعُوا الْأَمْوَالَ ، وَجَدْتُمْ أَنَّ مَا اكْتَسَبُوهُ عَنْ طَرِيقِ التَّطْفِيفِ وَالْبَخْسِ وَالْخِيَانَةِ، كَانَ مَصِيرُهُ إِلَى التَّلَفِ وَالضَّيَاعِ ، أَوْ الْفَسَادِ وَالْبَلَاءِ ، فَسُرِقَ أَوْ نُهِبَ ، أَوْ أُنْفِقَ فِي غَيْرِ مَا يُرْضِي اللّٰهَ ، أَوْ سُلِّطَ عَلَيْهِ مَنْ أَتْلَفَهُ وَعَبَثَ بِهِ ، وَالْقَلِيلُ الَّذِي يَنْفَعُ خَيْرٌ مِنَ الْكَثِيرِ الَّذِي لَا يَنْفَعُ : «قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ» .

وَنَصِيحَتِي لَكُمْ خَالِصَةٌ مُخْلَصَةٌ ، وَاللّٰهُ هُوَ الرَّقِيبُ عَلَيْكُمْ وَحْدَهُ . يَقُولُ فِي رِفْقٍ وَحِكْمَةٍ وَعِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ : «بَقِيَّتُ اللّٰهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ» .

٥ - أَبٌ رَحِيمٌ وَمُعَلِّمٌ حَكِيمٌ

وَيَتَنَوَّعُ لَهُمْ فِي الْخِطَابِ ، وَيَتَفَنَّنُ فِي النَّصِيحَةِ ، شَأْنَ الْأَبِ الرَّحِيمِ وَالْمُعَلِّمِ الْحَكِيمِ ، فَيَقُولُ :

«يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ۝»..

٦- جَوابُ قَوْمِهِ

وَقَدْ دَقَّقَ أَذْكِياؤُهُمْ في تَفْسِيرِ هٰذِهِ الدَّعْوَةِ وَتَعْلِيلِها وَقالُوا في تِيهٍ وَزَهْوٍ، كَأَنَّهُمْ اكْتَشَفُوا سِرًّا أَوْ فَكُّوا لُغْزَةً:

«يٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ۝».

٧- شُعَيْبٌ يَشْرَحُ دَعْوَتَهُ

وَتَلَطَّفَ لَهُمْ شُعَيْبٌ، فَلَمْ يَقْسُ وَلَمْ يَغْضَبْ،

وَأَفْهَمَهُمْ أَنَّهُ مَا حَمَلَهُ عَلَىٰ هَٰذِهِ الدَّعْوَةِ وَالنَّصِيحَةِ بَعْدَ صَمْتٍ طَوِيلٍ وَعَدَمِ تَعَرُّضٍ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ أَخْلَاقٍ فَاسِدَةٍ وَتَصَرُّفَاتٍ جَائِرَةٍ، إِلَّا مَا أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِهِ أَخِيرًا: بِالنُّبُوَّةِ وَالْوَحْيِ وَمَا شَرَحَ لَهُ صَدْرَهُ وَآتَاهُ نُورًا مِّنْ عِنْدِهِ.

وَأَنَّهُ لَا يَحْمِلُهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ الْحَسَدُ، فَقَدْ أَغْنَاهُ اللَّهُ وَرَزَقَهُ حَلَالًا طَيِّبًا، وَأَنَّهُ بِذَٰلِكَ سَعِيدٌ، هَنِيءُ النَّفْسِ، رَخِيُّ الْبَالِ، شَاكِرٌ لِّلَّهِ تَعَالَىٰ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ.

ثُمَّ إِنَّهُ لَا يَنْهَاهُمْ عَنْ أَمْرٍ وَيَرْتَكِبُهُ، وَيَمْنَعُهُمْ مِنْ شَيْءٍ وَيَأْتِيهِ، وَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ، وَلَا مِنَ الَّذِينَ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، إِنَّمَا يُرِيدُ إِصْلَاحَهُمْ وَإِسْعَادَهُمْ وَإِنْقَاذَهُمْ مِّنَ الْعَذَابِ الَّذِي يُحَلِّقُ عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ، وَإِنَّ الْفَضْلَ كُلَّهُ يَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَعَلَيْهِ اعْتِمَادُهُ.

«قَالَ: يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا

تَوْفِيقِيَ إِلَّا بِاللهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ».

٨ - مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ

وَتَجَاهَلَ الْقَوْمُ مَا أَرَادَهُ شُعَيْبٌ، كَأَنَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ مَعَهُمْ فِي لُغَةٍ أَجْنَبِيَّةٍ، مَعَ أَنَّهُ ابْنُ الْبَلَدِ وَأَخُو الْقَوْمِ، وَكَأَنَّهُ كَانَ غَيْرَ مُبِينٍ فِي كَلَامِهِ غَيْرَ مُفْصِحٍ، مَعَ أَنَّهُ مِنْ أَبْلَغِهِمْ كَلَامًا وَأَفْصَحِهِمْ بَيَانًا، وَهٰكَذَا يَقُولُ النَّاسُ إِذَا كَبُرَتْ عَلَيْهِمُ النَّصِيحَةُ وَشَقَّ عَلَيْهِمُ الْعَمَلُ.

٩ - شُعَيْبٌ يَتَعَجَّبُ مِنْ قَوْمِهِ

وَتَعَلَّلُوا بِضَعْفِهِ وَوَحْدَتِهِ وَأَنَّهُ لَوْلَا عَشِيرَتُهُ وَقَرَابَتُهُمْ لَهُ لَرَجَمُوهُ بِالْحِجَارَةِ وَتَخَلَّصُوا مِنْهُ، وَقَدِ اسْتَنْكَرَ ذٰلِكَ شُعَيْبٌ وَتَعَجَّبَ مِنْ أَنْ يَكُونَ اللهُ الْعَزِيزُ الْقَادِرُ وَالْقَوِيُّ الْقَاهِرُ، أَهْوَنَ عَلَيْهِمْ مِنْ عَشِيرَةٍ هِيَ عُرْضَةٌ لِلْأَمْرَاضِ وَالْهَلَاكِ وَالضَّعْفِ وَالْعَجْزِ.

«قَالُوا: يٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرٰيكَ

فِينَا ضَعِيفًا ج وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ز وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ
قَالَ : يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ط وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ
ظِهْرِيًّا ط إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ».

١٠- السَّهمُ الأَخِيرُ

وَلَمَّا انقطَعَتْ حُجَّتُهُمْ أَطْلَقُوا السَّهمَ الأَخِيرَ الَّذِي أَطْلَقَهُ الْمُتَكَبِّرُونَ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ عَلَى نَبِيِّهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ :

« قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ : لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا »

١١- حُجَّةٌ قَاطِعَةٌ

فَكَانَ جَوَابُهُ جَوَابَ فَخُورٍ بِدِينِهِ ، غَيُورٍ عَلَى عَقِيدَتِهِ وَضَمِيرِهِ : « قَالَ : أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۝ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا اللَّهُ مِنْهَا ط وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ رَبُّنَا ط وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ط عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ط رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ

وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ○ .

١٢- بَلْ قَالُوا مِثْلَمَا قَالَ الْأَوَّلُونَ

فَلَمْ يَنفَعْهُمْ ذٰلِكَ ، بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ : « قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۝ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكٰذِبِينَ ۝ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ۝ » .

١٣- عَاقِبَةُ أُمَّةٍ كَذَّبَتْ نَبِيَّهَا

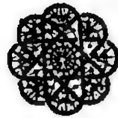
وَكَانَتِ الْعَاقِبَةُ وَاحِدَةً ، عَاقِبَةَ كُلِّ أُمَّةٍ كَذَّبَتْ نَبِيَّهَا وَكَفَرَتْ بِنِعْمَةِ اللّٰهِ : « فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جٰثِمِينَ ۝ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ج الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخٰسِرِينَ ○ » .

١٤- بَلَّغَ الرِّسَالَةَ وَأَدَّى الْأَمَانَةَ

وَكَانَ شَأْنُ شُعَيْبٍ شَأْنَ كُلِّ نَبِيٍّ بَلَّغَ الرِّسَالَةَ وَأَدَّى

الْأَمَانَةَ ، وَأَقَامَ الْحُجَّةَ :

« فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ : يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ج فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ٥ » .



قِصَّةُ سَيِّدِنَا دَاوُدَ وَسَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ
عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

وَلَمْ يَقْتَصِرِ الْقُرْآنُ عَلَى ذِكْرِ أَيَّامِ اللهِ وَمَا لَقِيَهُ الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ مِنْ تَكْذِيبٍ وَسُخْرِيَّةٍ وَإِهَانَةٍ وَمُطَارَدَةٍ مِّنَ الْأُمَمِ الَّتِي بُعِثُوا فِيهَا ، وَمَا لَقِيَتْ هٰذِهِ الْأُمَمُ مِنْ عُقُوبَةٍ وَعَذَابٍ، وَهَلَاكٍ وَدَمَارٍ ، لِتَكْذِيبِهَا لِلرُّسُلِ، وَاسْتِهْزَائِهَا بِهِمْ، وَكَيْدِهَا لَهُمْ، وَهَمِّهَا بِقَتْلِهِمْ ، كَمَا مَرَّ بِكُمْ فِي قِصَصِ النَّبِيِّينَ .

١- الْقُرْآنُ يَتَحَدَّثُ عَنْ آلَاءِ اللهِ

بَلْ تَحَدَّثَ الْقُرْآنُ كَثِيرًا عَنْ آلَاءِ اللهِ ، وَحَكَى فِي بَسْطٍ أَحْيَانًا وَفِي اخْتِصَارٍ أَحْيَانًا عَنْ نِعَمٍ كَثِيرَةٍ، أَنْعَمَ بِهَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ ، مِنْهُمْ دَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ ، وَمِنْهُمْ أَيُّوبُ وَيُونُسُ ، وَ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى .

فَأَمَّا دَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ فَقَدْ مَكَّنَ اللهُ لَهُمَا فِي الْأَرْضِ ، وَوَسَّعَ لَهُمَا فِي الْمُلْكِ ، وَمَدَّ لَهُمَا فِي الْعِلْمِ،

وَعَلَّمَهُمَا كَثِيرًا مِمَّا جَهِلَهُ النَّاسُ ، سَخَّرَ لَهُمَا الْأَقْوِيَاءَ وَالْعُتَادَ ، وَمَا لَا يَنْقَادُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالْجَمَادَاتِ ، فَقَالَ :

« وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ج وَقَالَا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ○ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُدَ وَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ط إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ○ » .

٢- نِعمةُ اللّه علىٰ داوُد

فَأَمَّا دَاوُدُ فَقَدْ سَخَّرَ اللَّهُ لَهُ الْجِبَالَ وَالطَّيْرَ تَتَجَاوَبُ مَعَهُ فِي الدُّعَاءِ وَالتَّسْبِيحِ ، وَعَلَّمَهُ صَنْعَةَ الدُّرُوعِ ، وَأَلَانَ لَهُ الْحَدِيدَ :

« وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا ط يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ج وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ○ لا أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ط إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ○ » .

وَيَقُولُ : « وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ○ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن

بَأْسِكُمْ ج فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ٥»

٣ - شُكْرُهُ عَلَىٰ هٰذِهِ النِّعْمَةِ

وَكَانَ دَاوُدُ مَعَ هٰذَا الْمُلْكِ الْوَاسِعِ وَالْيَدِ الْحَاذِقَةِ الْقَوِيَّةِ عَبْدًا خَاشِعًا أَوَّابًا ، دَائِمَ الذِّكْرِ ، طَوِيلَ الدُّعَاءِ وَالتَّسْبِيحِ ، حَاكِمًا مُقْسِطًا ، يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا يُحَابِي ، يَقُولُ اللّٰهُ تَعَالَىٰ :

« يٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنٰكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ ط إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ٥» .

٤ - نِعْمَةُ اللّٰهِ عَلَىٰ سُلَيْمَانَ

فَأَمَّا سُلَيْمَانُ فَقَدْ سَخَّرَ اللّٰهُ لَهُ الرِّيَاحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ وَتَحْمِلُهُ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ ، فَيَصِلُ إِلَيْهِ فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ وَأَسْرَعِ زَمَانٍ ، وَسَخَّرَ لَهُ الْأَقْوِيَاءَ وَالْحَاذِقِينَ مِنَ الْجِنِّ ،

وَالْمَارِدِينَ مِنَ الشَّيَاطِينِ ، يُنَفِّذُونَ أَوَامِرَهُ ، وَيُكْمِلُونَ مَشَارِيعَهُ الْعُمْرَانِيَّةَ وَالْبِنَائِيَّةَ الْعِمْلَاقَةَ .

« وَلِسُلَيْمَٰنَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ۝ وَمِنَ الشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ۝ » .

« وَلِسُلَيْمَٰنَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ۝ » .

٥ - فِقهٌ دَقِيقٌ وعلمٌ عَمِيقٌ

وَقَدْ تَجَلَّى ذَكَاؤُهُ وَقُدْرَتُهُ عَلَى الْحُكْمِ الصَّحِيحِ فِي قَضِيَّةٍ رُفِعَتْ إِلَى وَالِدِهِ الْعَظِيمِ ، فَكَانَ لِقَوْمٍ كَرْمٌ قَدْ أَنْبَتَتْ

عَنَاقِيدَهُ ، فَدَخَلَتْ فِيهِ غَنَمٌ لِقَوْمٍ فَأَفْسَدَتْهُ ، فَقَضَى دَاوُدُ بِالْغَنَمِ لِصَاحِبِ الْكَرْمِ ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ : غَيْرُ هَذَا يَا نَبِيَّ اللهِ . قَالَ : وَمَا ذَاكَ ؟ . قَالَ : تَدْفَعُ الْكَرْمَ إِلَى صَاحِبِ الْغَنَمِ فَيَقُومُ عَلَيْهِ كَمَا كَانَ ، وَتَدْفَعُ الْغَنَمَ إِلَى صَاحِبِ الْكَرْمِ فَيُصِيبُ مِنْهَا ، حَتَّى إِذَا كَانَ الْكَرْمُ كَمَا كَانَ ، دَفَعْتَ الْكَرْمَ إِلَى صَاحِبِهِ ، وَدَفَعْتَ الْغَنَمَ إِلَى صَاحِبِهَا .

وَخَصَّهُ اللهُ بِفِقْهٍ دَقِيقٍ وَعِلْمٍ عَمِيقٍ فَقَالَ : «وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ۝ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ».

٦- سُلَيْمَانُ يَعْرِفُ لُغَةَ الطَّيْرِ وَالْحَيَوَانِ

وَقَصَّ الْقُرْآنُ قِصَّةً حَكِيمَةً مُمْتِعَةً تَجَلَّى فِيهَا تَيَقُّظُ سُلَيْمَانَ فِي تَدْبِيرِ مَمْلَكَتِهِ وَرَهْبَةِ سُلْطَانِهِ ، كَيْفَ جَمَعَ اللهُ لَهُ بَيْنَ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَبَيْنَ الْمُلْكِ وَالتَّمْكِينِ وَالنُّبُوَّةِ

وَالرِّسَالَةِ فِي الدِّينِ ، وَكَانَ يَعْرِفُ لُغَةَ الطَّيْرِ وَالْحَيَوَانِ ، وَجَمَعَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ ذَاتَ مَرَّةٍ ، وَرَكِبَ فِيهِمْ فِي أُبَّهَةٍ وَعَظَمَةٍ ، وَكَانُوا عَلَىٰ نِظَامٍ كَامِلٍ ، وَكَانُوا فِي قِيَادَةِ رُؤَسَائِهِمْ ، فَمَرَّ سُلَيْمَانُ عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ ، فَخَافَتْ نَمْلَةٌ عَلَىٰ قَبِيلَتِهَا أَنْ تَحْطِمَهَا الْخُيُولُ بِحَوَافِرِهَا ، وَلَا يَشْعُرَ بِذٰلِكَ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ، فَأَمَرَتْهُمْ بِالدُّخُولِ فِي مَسَاكِنِهِمْ ، فَفَهِمَ ذٰلِكَ سُلَيْمَانُ ، وَلَمْ يَأْخُذْهُ التِّيهُ وَلَا الزَّهْوُ بِأَنَّهُ نَبِيٌّ مِّنْ أَنْبِيَاءِ اللّٰهِ ، بَلْ حَمَلَهُ ذٰلِكَ عَلَىٰ حَمْدِ اللّٰهِ تَعَالَىٰ وَشُكْرِ نِعْمَتِهِ ، وَالدُّعَاءِ لِلتَّوْفِيقِ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالْانْخِرَاطِ فِي سِلْكِ عِبَادِ اللّٰهِ الصَّالِحِينَ .

٧ - قِصَّةُ هُدْهُدَ

وَكَانَ الْهُدْهُدُ رَائِدَهُ وَعَيْنَهُ يَدُلُّهُ عَلَىٰ مَوَاضِعِ الْمِيَاهِ ، وَمَنَازِلِ الْجَيْشِ ، فَلَمْ يَجِدْهُ ، فَأَنْكَرَ ذٰلِكَ وَتَوَعَّدَهُ ، فَغَابَ زَمَاناً يَسِيرًا ثُمَّ جَاءَ ، فَقَالَ لِسُلَيْمَانَ : اطَّلَعْتُ عَلَىٰ مَا لَمْ تَطَّلِعْ عَلَيْهِ أَنْتَ وَلَا جُنُودُكَ ، وَجِئْتُكَ بِخَبَرٍ صِدْقٍ

عَنْ سَبَأٍ وَمَلِكَتِهِمْ ، لَهُمْ مُلْكٌ عَظِيمٌ وَدَوْلَةٌ وَاسِعَةٌ ، وَقَدْ وَجَدْتُهُمْ - عَلَى هٰذَا الْعَقْلِ وَالْكِيَاسَةِ وَالْمُلْكِ وَالرِّئَاسَةِ - أَصْحَابَ سَفَاهَةٍ وَجَهَالَةٍ ، وَهُمْ يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللّٰهِ ، وَلَا يَفْقَهُونَ ذٰلِكَ ، وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللّٰهِ وَحْدَهُ .

٨ - سُلَيمانُ يَدْعُو مَلِكَةَ سَبَأٍ إِلَىٰ دِينِهِ

وَشَقَّ عَلَىٰ نَبِيِّ اللّٰهِ أَنْ تَكُونَ بِجِوَارِ مَمْلَكَتِهِ مُلْكٌ وَأُمَّةٌ لَا يَعْرِفُهَا وَلَمْ تَبْلُغْهَا دَعْوَتُهُ ، وَلَا تَزَالُ تَعْبُدُ الشَّمْسَ ، وَثَارَتْ فِيهِ الْحَمِيَّةُ الدِّينِيَّةُ النَّبَوِيَّةُ ، وَرَأَىٰ مِنَ الصَّوَابِ أَنْ يَكْتُبَ إِلَىٰ مَلِكَتِهَا وَحَاكِمَتِهَا الْمُشْرِكَةِ ، وَيَدْعُوَهَا إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَالطَّاعَةِ وَالْاِسْتِسْلَامِ ، قَبْلَ أَنْ يَزْحَفَ عَلَىٰ بِلَادِهَا بِجُنُودِهِ الْقَاهِرَةِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهَا كِتَابًا بَلِيغًا وَدَعَاهَا فِيهِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالْاِسْتِسْلَامِ ، وَالْكِتَابُ يَجْمَعُ بَيْنَ الرِّقَّةِ وَالصَّرَامَةِ وَتَوَاضُعِ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرَةِ الْمُلُوكِ .



٩- المَلِكَةُ تَسْتَشِيرُ أَرْكَانَ دَوْلَتِهَا

فَقَدْ كَانَ سُلَيْمَانُ جَامِعًا بَيْنَهُمَا ، وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ الَّتِي تَحْكُمُ هٰذِهِ الْبِلَادَ عَاقِلَةً غَيْرَ مُتَسَرِّعَةٍ فِي الْحُكْمِ ، عِنْدَهَا تَجَارِبُ وَاسِعَةٌ مِّنْ سِيَرِ الْمُلُوكِ وَأَخْبَارِ الْفَاتِحِينَ ، وَإِنَّمَا خَانَهَا عَقْلُهَا فِي مَعْرِفَةِ الْإِلٰهِ وَعِبَادَتِهِ ؛ فَلَمْ تَأْخُذْهَا حَمِيَّةُ الْمُلُوكِ ، وَلَمْ تَسْتَبِدَّ بِالرَّأْيِ ، فَأَطْلَعَتْ أَهْلَ الرَّأْيِ مِنْ أَرْكَانِ دَوْلَتِهَا عَلَى هٰذَا الْكِتَابِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ كَسَائِرِ الْكُتُبِ ، إِنَّهُ كِتَابٌ مِّنْ أَعْظَمِ الْمُلُوكِ فِي زَمَانِهَا وَمِنْ نَبِيٍّ دَاعٍ إِلَى اللّٰهِ

وَلَمَّا بَدَأَ أَرْكَانُ دَوْلَتِهَا يُدِلُّونَ بِقُوَّتِهِمْ وَكَثْرَةِ جُيُوشِهِمْ إِرْضَاءً وَتَمَلُّقًا - شَأْنَ جُلَسَاءِ الْمُلُوكِ وَالْحُكَّامِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ - لَمْ تَقْبَلْ مَقَالَتَهُمْ وَلَمْ تُوَافِقْهُمْ عَلَيْهَا ، بَلْ حَذَّرَتْهُمْ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ ، وَذَكَّرَتْهُمْ بِسِيرَةِ الْمُلُوكِ الْفَاتِحِينَ فِي الْأُمَمِ الْمَفْتُوحَةِ وَمَصِيرِهَا بَعْدَ الْهَزِيمَةِ وَالْاِنْكِسَارِ ، وَقَالَتْ سَيَكُونُ هٰذَا شَأْنُ بِلَادِنَا وَأُمَّتِنَا ، وَقَالَتْ لَهُمْ : إِنَّنِي سَأُرْسِلُ إِلَى سُلَيْمَانَ بِهَدَايَا وَطُرَفٍ فَأَمْتَحِنُهُ بِهَا ، فَإِنْ

قَبِلَ الْهَدِيَّةَ فَهُوَ مَلِكٌ فَقَاتِلُوهُ ، وَإِنْ لَمْ يَقْبَلْهَا فَهُوَ نَبِيٌّ فَاتَّبِعُوهُ.

١٠- هَدِيَّةُ مُسَاوَمَةٍ

وَبَعَثَتْ إِلَيْهِ بِهَدِيَّةٍ عَظِيمَةٍ لَائِقَةٍ بِالْمُلُوكِ ، فَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَىٰ سُلَيْمَانَ أَعْرَضَ عَنْهَا وَزَهِدَ فِيهَا ، وَقَالَ : أَتُسَاوِمُونَنِي بِمَالٍ لِأَتْرُكَكُمْ عَلَىٰ شِرْكِكُمْ وَمُلْكِكُمْ؟ وَالَّذِي أَعْطَانِي اللَّهُ مِنَ الْمُلْكِ وَالْمَالِ وَالْجُنُودِ ، خَيْرٌ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ ، وَالْأَمْرُ جِدٌّ لَيْسَ بِهَزْلٍ ، وَالْقَضِيَّةُ قَضِيَّةُ دَعْوَةٍ وَطَاعَةٍ ، لَيْسَتْ قَضِيَّةَ مُسَاوَمَةٍ ، وَتَوَعَّدَهُمْ بِقَصْدِهِ لَهُمْ وَزَحْفِهِ عَلَىٰ مُلْكِهِمْ

١١- الْمَلِكَةُ تَأْتِي خَاضِعَةً

فَلَمَّا رَجَعَتْ هٰذِهِ الْبِعْثَةُ إِلَىٰ مَلِكَةِ سَبَأٍ ، وَحَكَتْ لَهَا الْقِصَّةَ ، سَمِعَتْ وَأَطَاعَتْ هِيَ وَقَوْمُهَا ، وَأَقْبَلَتْ تَسِيرُ إِلَيْهِ فِي جُنُودِهَا خَاضِعَةً ، وَلَمَّا تَحَقَّقَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قُدُومَهُمْ إِلَيْهِ فَرِحَ بِذٰلِكَ وَحَمِدَ اللَّهَ ، وَأَرَادَ أَنْ يُرِيَهَا

آيَةً مِّنْ آيَاتِ اللّٰهِ ، لِيَكُونَ ذٰلِكَ أَدَلَّ عَلَىٰ قُدْرَةِ اللّٰهِ وَنِعَمِهِ عَلَىٰ سُلَيْمَانَ ، فَأَرَادَ أَنْ يُحْضِرَ عَرْشَهَا الَّذِي وَكَّلَتْ بِهِ رِجَالاً أَقْوِيَاءَ أُمَنَاءَ ، فَطَلَبَ مِنْ مَلَإِهِ أَنْ يَأْتُوهُ بِعَرْشِهَا قَبْلَ وُصُولِ هٰذَا الْمَوْكِبِ الْعَظِيمِ .

وَقَدْ تَحَقَّقَ مَا أَرَادَ سُلَيْمَانُ فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ وَكَانَ مُعْجِزَةً ، وَأَمَرَ بِهِ سُلَيْمَانُ فَغُيِّرَ بَعْضُ صِفَاتِهِ ، لِيَخْتَبِرَ مَعْرِفَتَهَا وَثَبَاتَهَا عِنْدَ رُؤْيَتِهِ ، وَإِنِ الْتَبَسَ عَلَيْهَا الْأَمْرُ كَانَ دَلِيلاً عَلَىٰ قُصُورِ نَظَرِهَا فِي أُمُورٍ أَدَقَّ مِنْهُ وَأَبْعَدَ مَنَالاً .

١٢- قَصْرٌ عَظِيمٌ مِنْ زُجَاجٍ

وَأَمَرَ سُلَيْمَانُ الْبَنَّائِينَ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، فَبَنَوْا لَهَا قَصْرًا عَظِيمًا مِّنْ زُجَاجٍ ، وَأَجْرَوْا تَحْتَهُ الْمَاءَ ، فَالَّذِي لَا يَعْرِفُ أَمْرَهُ يَحْسَبُ أَنَّهُ مَاءٌ ، وَلٰكِنَّ الزُّجَاجَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَاشِي وَبَيْنَ الْمَاءِ ، وَكَانَ الْمُؤَكَّدُ أَنَّ الْمَلِكَةَ تَتَوَهَّمُهُ مَاءً فَتَكْشِفُ عَنْ سَاقَيْهَا ، وَهُنَالِكَ تَتَبَيَّنُ الْخَطَأَ ،

وَتُدْرِكُ قُصُورَ نَظَرِهَا وَانْخِدَاعَهَا بِالْمَظَاهِرِ ، وَكَانَتْ هِيَ وَقَوْمُهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ ، لِأَنَّهَا أَكْبَرُ مَظْهَرٍ لِلنُّورِ وَالْحَيَاةِ ، الَّتِي هِيَ مِنْ صِفَاتِ اللّٰهِ تَعَالَىٰ ، وَهُنَالِكَ يَنْكَشِفُ الْغِطَاءُ عَنْ عَيْنَيْهَا ، فَتَعْرِفُ أَنَّهَا كَمَا أَخْطَأَتْ فِي مُعَامَلَةِ الزُّجَاجِ مُعَامَلَةَ الْمَاءِ فَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ، كَذٰلِكَ أَخْطَأَتْ فِي مُعَامَلَةِ الشَّمْسِ مُعَامَلَةَ الْخَالِقِ فَسَجَدَتْ لَهَا وَعَبَدَتْهَا ، وَكَانَ ذٰلِكَ أَبْلَغَ مِنْ مِائَةِ خُطْبَةٍ وَأَلْفِ دَلِيلٍ .

١٣- وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

وَهٰكَذَا كَانَ ، فَقَدْ تَوَرَّطَتْ رَغْمَ دَهَائِهَا وَذَكَائِهَا فِي هٰذَا الْخَطَإِ الْفَاحِشِ ، وَتَوَهَّمَتِ الزُّجَاجَةَ مَاءً رَقْرَاقًا يَسِيلُ وَيَمُوجُ ، فَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ، وَأَرَادَتْ أَنْ تَخُوضَهُ .

هُنَالِكَ نَبَّهَهَا نَبِيُّ اللّٰهِ سُلَيْمَانُ عَلَىٰ خَطَإِهَا ، وَقَالَ : إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِّنْ قَوَارِيرَ ، وَانْكَشَفَ الْغِطَاءُ عَنْ عَيْنِهَا ، وَعَرَفَتْ جَهْلَهَا فِي قِيَاسِ الْمَظْهَرِ عَلَى الظَّاهِرِ ، وَعِبَادَةِ الشَّمْسِ وَالسُّجُودِ لَهَا ، وَابْتَدَرَتْ تَقُولُ : رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ

نَفْسِي ، وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

١٤- الْقُرْآنُ يَحْكِي قِصَّةَ سُلَيْمَانَ

وَاقْرَؤُوا هٰذِهِ الْقِصَّةَ الشَّائِقَةَ الْمُمْتِعَةَ فِي الْقُرْآنِ ، يَقُولُ اللّٰهُ تَعَالَىٰ :

« وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ : مَالِيَ لَآ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَآئِبِينَ ۝ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ: أَحَطتُّ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۝ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۝ قَالَ : سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَٰذِبِينَ ۝ اذْهَب

بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ
قَالَتْ : يَٰأَيُّهَا الْمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ۝ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَٰنَ
وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي
مُسْلِمِينَ ۝ قَالَتْ : يَٰأَيُّهَا الْمَلَؤُاْ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي ج
مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونَ ۝ قَالُوا : نَحْنُ أُولُو
قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ۝ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا
تَأْمُرِينَ ۝ قَالَتْ : إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا
وَجَعَلُوٓا أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ج وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ
إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ۝ فَلَمَّا جَآءَ
سُلَيْمَٰنَ قَالَ : أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ اللَّهُ خَيْرٌ
مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمْ ج بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ۝ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ
فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً
وَهُمْ صَٰغِرُونَ ۝ قَالَ : يَٰأَيُّهَا الْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا
قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۝ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ : أَنَا
ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ج وَإِنِّي عَلَيْهِ
لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۝ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَٰبِ : أَنَا

آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ : هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ○ قَالَ : نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ○ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ : أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ : كَأَنَّهُ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ○ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ○ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ۚ قَالَ : إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ : رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ○ »

وَهَٰذَا نَبِيُّ اللَّهِ سُلَيْمَانُ ، وَقَدْ رَأَيْتُمْ مَوَاقِفَهُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى التَّوْحِيدِ ، وَحِكْمَتَهُ وَفِقْهَهُ وَغَيْرَتَهُ عَلَى دِينِهِ وَعَقِيدَتِهِ .

١٥- وَمَا كَفَرَ سُلَيمانَ
وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا

نَسَبَ إِلَيْهِ الْيَهُودُ مَا لَا يَلِيقُ بِمُؤْمِنٍ مُوَحِّدٍ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِيمَانِ ، فَضْلًا عَنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ آتَاهُ اللهُ الْحِكْمَةَ ، وَأَكْرَمَهُ بِالنُّبُوَّةِ ، وَشَرَّفَهُ بِالْخِلَافَةِ فَنَسَبُوا إِلَيْهِ السِّحْرَ وَالْكُفْرَ ، وَالْمُدَاهَنَةَ لِلْمُشْرِكِ ، وَالِاضْطِرَابَ فِي أَمْرِ التَّوْحِيدِ بِسَبَبِ أَزْوَاجِهِ ، فَبَرَّأَهُ اللهُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ ، فَقَالَ :

« وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ». وَقَالَ : « وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَنَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ». وَقَالَ : « وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ».



قِصَّةُ سيِّدِنا أيُّوب وسيِّدِنا يُونس عليهما السَّلام

١- قِصَّةُ أيُّوبَ نَمَطٌ آخَرُ مِنَ القَصَصِ

وَقِصَّةُ أَيُّوبَ فِي الْقُرْآنِ نَمَطٌ آخَرُ مِنَ الْقَصَصِ، وَمَظْهَرٌ آخَرُ مِنْ مَظَاهِرِ نِعَمِ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، الصَّابِرِينَ الشَّاكِرِينَ، وَالْأَنْبِيَاءِ الْمَحْبُوبِينَ؛ فَقَدْ كَانَ لَهُ مِنَ الدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ شَيْءٌ كَثِيرٌ، وَأَوْلَادٌ مَرْضِيَّةٌ، فَابْتُلِيَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، وَذَهَبَ عَنْ آخِرِهِ، ثُمَّ ابْتُلِيَ فِي جَسَدِهِ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ سَلِيمٌ سِوَى قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ يَذْكُرُ بِهِمَا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، حَتَّى عَافَهُ الْجَلِيسُ، وَأُفْرِدَ فِي نَاحِيَةٍ مِّنَ الْبَلَدِ، وَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِّنَ النَّاسِ يَحْنُو عَلَيْهِ، سِوَى زَوْجَتِهِ الَّتِي كَانَتْ تَقُومُ بِأَمْرِهِ، وَاحْتَاجَتْ أَيْضًا فَصَارَتْ تَخْدِمُ النَّاسَ مِنْ أَجْلِهِ (١).

(١) العبارة لابن كثير في تفسيره.

٢- صَبْرُ أَيُّوبَ

وَكَانَ رَغْمَ كُلِّ ذٰلِكَ صَابِرًا شَاكِرًا يَلْهَجُ لِسَانُهُ بِالذِّكْرِ وَالشُّكْرِ، لَا يَشْكُو، وَلَا يَتَعَتَّبُ، وَلَا يَتَذَمَّرُ، وَلَا يَغْضَبُ، وَدَامَ عَلَىٰ ذٰلِكَ سِنِينَ طِوَالًا مُلْقًى عَلَىٰ كُنَاسَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَخْتَلِفُ الدَّوَابُّ فِي جَسَدِهِ.

٣- مِحنَةٌ ومِنْحَةٌ

وَلَمَّا تَمَّ مَا أَرَادَهُ اللّٰهُ مِنَ ابْتِلَاءٍ، وَمَا أَرَادَ بِهِ مِنْ تَكْمِيلٍ، وَرَفْعِ دَرَجَاتٍ، وَالرِّضَا بِالْقَضَاءِ، أَلْهَمَهُ الدُّعَاءَ الْمُسْتَجَابَ، الَّذِي تَجَلَّىٰ فِيهِ عَجْزُهُ وَبُؤْسُهُ، وَأَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللّٰهِ إِلَّا إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَافَاهُ اللّٰهُ فِي بَدَنِهِ وَأَهْلِهِ، وَرَدَّ عَلَيْهِ مَالَهُ، وَبَارَكَ لَهُ فِي كُلِّ ذٰلِكَ، فَكَانَ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً، يَقُولُ اللّٰهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

«وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ

وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۞ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَ ذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ۞».

٤ - قِصَّةُ يُونُسَ وَحِكْمَتُهَا

وَتَأْتِي قِصَّةُ يُونُسَ مَقْرُونَةً بِقِصَّةِ أَيُّوبَ، مُؤَيِّدَةً لَّهَا فِي إِثْبَاتِ قُدْرَةِ اللّٰهِ تَعَالَىٰ وَلُطْفِهِ بِعِبَادِهِ وَإِغَاثَتِهِ لَهُمْ، حِينَ يَنْقَطِعُ الرَّجَاءُ، وَيَغْشَى الْيَأْسُ الْقَاتِلُ وَالظَّلَامُ الْحَالِكُ، وَتَنْسَدُّ جَمِيعُ الْمَنَافِذِ، فَلَا نُورَ وَلَا هَوَاءَ، وَلَا أَمَلَ وَلَا رَجَاءَ، تَدُورُ رَحَى الْمَوْتِ قَوِيَّةً سَرِيعَةً تَطْحَنُ حَبَّةَ الْحَيَاةِ نَاعِمَةً دَقِيقَةً.

هُنَالِكَ تَبْرُزُ يَدُ الْقُدْرَةِ الْإِلٰهِيَّةِ، الْقَوِيَّةُ الْقَاهِرَةُ، الرَّحِيمَةُ الْحَكِيمَةُ، فَتُخْرِجُ هٰذَا الْإِنْسَانَ الضَّعِيفَ مِنْ أَشْدَاقِ الْأَسَدِ الضَّارِي وَالْمَوْتِ الْفَاتِكِ، فَيَخْرُجُ سَلِيمًا غَيْرَ مَخْدُوشٍ، كَامِلًا غَيْرَ مَنْقُوصٍ، كَأَنَّمَا كَانَ عَلَىٰ فِرَاشِهِ فِي بَيْتِهِ مَحْفُوظًا بَيْنَ أَهْلِهِ.

٥ - يُونُسُ بَيْنَ قَوْمِهِ

وَهٰذِهِ قِصَّةُ يُونُسَ : بَعَثَهُ اللّٰهُ إِلَىٰ أَهْلِ قَرْيَةِ « نَيْنَوَا » فَدَعَاهُمْ إِلَى اللّٰهِ تَعَالَىٰ ، فَأَبَوْا عَلَيْهِ ، وَتَمَادَوْا فِي كُفْرِهِمْ ، فَخَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ مُغَاضِبًا لَهُمْ ، وَوَعَدَهُمْ بِالْعَذَابِ بَعْدَ ثَلَاثٍ ، فَلَمَّا تَحَقَّقُوا مِنْهُ ذٰلِكَ وَعَلِمُوا أَنَّ النَّبِيَّ لَا يَكْذِبُ ، خَرَجُوا إِلَى الصَّحْرَاءِ بِأَطْفَالِهِمْ وَأَنْعَامِهِمْ وَمَوَاشِيهِمْ ، وَفَرَّقُوا بَيْنَ بَيْنَ الْأُمَّهَاتِ وَأَوْلَادِهَا ، ثُمَّ تَضَرَّعُوا إِلَى اللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَجَأَرُوا إِلَيْهِ ، وَرَغَتِ الْإِبِلُ وَفُصْلَانُهَا ، وَخَارَتِ الْبَقَرُ وَأَوْلَادُهَا ، وَثَغَتِ الْغَنَمُ وَسِخَالُهَا ؛ فَرَفَعَ اللّٰهُ عَنْهُمُ الْعَذَابَ ، قَالَ اللّٰهُ تَعَالَىٰ :

« فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝ » .



٦- يُونُسُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ

وَأَمَّا يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُ ذَهَبَ فَرَكِبَ مَعَ قَوْمٍ فِي سَفِينَةٍ ، فَجَنَحَتْ بِهِمْ ، وَخَافُوا أَنْ يَغْرَقُوا فَاقْتَرَعُوا عَلَى رَجُلٍ يُلْقُونَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ يَتَخَفَّفُونَ مِنْهُ فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَى يُونُسَ فَأَبَوْا أَنْ يُلْقُوهُ ، ثُمَّ أَعَادُوهَا فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ أَيْضًا ، فَأَبَوْا ، ثُمَّ أَعَادُوهَا ، فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ أَيْضًا ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : « فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ » أَيْ فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ الْقُرْعَةُ ، فَقَامَ يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَجَرَّدَ مِنْ ثِيَابِهِ ، ثُمَّ أَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْبَحْرِ ، وَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ حُوتًا يَشُقُّ الْبِحَارَ حَتَّى جَاءَ ، فَالْتَقَمَ يُونُسَ حِينَ أَلْقَى نَفْسَهُ مِنَ السَّفِينَةِ ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَى ذَلِكَ الْحُوتِ أَنْ لَا تَأْكُلَ لَهُ لَحْمًا ، وَلَا تَهْشِمَ لَهُ عَظْمًا (١).

---

(١) العبارة لابن كثير في تفسيره .

٧- وَاسْتَجَابَ اللّٰهُ دُعَاءَهُ

فَكَانَ فِي ظُلْمَةِ بَطْنِ الْحُوتِ ، فِي ظُلْمَةِ الْبَحْرِ ، فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، فَمَا أَشَدَّ الظَّلَامَ ! وَمَا أَبْعَدَ السَّلَامَ ! وَمَكَثَ مَا شَاءَ اللّٰهُ أَنْ يَمْكُثَ ، ثُمَّ أَلْهَمَهُ اللّٰهُ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تُبَدِّدُ الظُّلُمَاتِ ، وَتَكْشِفُ الْكُرُبَاتِ ، وَتَسْتَنْزِلُ الرَّحْمَةَ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ ، وَاسْمَعِ الْقُرْآنَ يَحْكِي هٰذِهِ الْقِصَّةَ الْغَرِيبَةَ الْفَرِيدَةَ ، الَّتِي فِيهَا سَلْوَى لِكُلِّ بَائِسٍ مَلْهُوفٍ ، وَيَائِسٍ مُضْطَرِبٍ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ ، وَرَأَى عِيَانًا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللّٰهِ إِلَّا إِلَيْهِ :

« وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَٰتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّٰلِمِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ۝ » .

قصة سيدنا زكريا عليه السلام

١- دعاء زكريا لولد صالح

وَلَوْنٌ آخَرُ مِنْ آلاءِ اللّٰهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ وَآيَاتِ قُدْرَتِهِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِكُلِّ شَيْءٍ ، تَجَلَّىٰ فِي دُعَاءِ زَكَرِيَّا لِوَلَدٍ صَالِحٍ رَضِيٍّ ، بَرٍّ تَقِيٍّ ، يَرِثُهُ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ، وَيَقُومُ بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللّٰهِ ، وَذٰلِكَ حِينَ تَقَدَّمَتْ بِهِ السِّنُّ ، وَوَهَنَ مِنْهُ الْعَظْمُ ، وَلَجَّ بِهِ الشَّيْبُ ، وَانْقَطَعَ الرَّجَاءُ مِنْ أَنْ تَلِدَ زَوْجُهُ ، فَأَجَابَ اللّٰهُ تَعَالَىٰ دُعَاءَهُ ، وَكَذَّبَ ظُنُونَ النَّاسِ ، وَأَبْطَلَ التَّجَارِبَ الْقَدِيمَةَ ، فَرَزَقَهُ وَلَدًا رَاشِدًا ، بَكَّرَ بِهِ النُّبُوغُ وَالْحِكْمَةُ ، وَالْحِلْمُ وَالْعِلْمُ ، وَالْكِتَابُ ، فِي الصِّغَرِ ، وَخُصَّ بِالْحَنَانِ وَالصَّلَاحِ وَالتَّقْوَىٰ وَالْبِرِّ بِالْوَالِدَيْنِ ، وَالرِّقَّةِ وَلِينِ الْكَنَفِ وَخَفْضِ الْجَنَاحِ .

وَرَبَطَ اللّٰهُ عَلَىٰ قَلْبِ زَكَرِيَّا ، وَأَرَاهُ آيَاتٍ تَدُلُّ

عَلَىٰ قُدْرَةِ اللهِ الْوَاسِعَةِ ، وَأَنَّهُ يَفْعَلُ مَايَشَاءُ ، وَأَرَاهُ تَصَرُّفَهُ فِي خَلْقِهِ وَفِي أَعْضَاءِ جِسْمِهِ يُحَرِّكُ مَايَشَاءُ وَيُعَطِّلُ مَايشَاءُ، وَتَحَقَّقَ لَهُ أَنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ بِيَدِهِ ، يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَيَرْزُقُ مَنْ يَّشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

٢- نَذْرُ امْرَأَةِ عِمْرَانَ

وَقَدْ نَذَرَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ - مِنْ أُسْرَةِ سَيِّدِنَا زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكَانَتِ امْرَأَةً صَالِحَةً تُحِبُّ اللهَ ، وَ تُحِبُّ دِينَهُ - أَنَّهَا إِذَا وَلَدَتْ ذَكَرًا تَهَبُ هٰذَا الْوَلَدَ لِلّٰهِ : لِخِدْمَةِ دِينِهِ وَسَأَلَتِ اللهَ أَنْ يَّتَقَبَّلَ هٰذَا الْوَلَدَ وَيَنْفَعَ بِهِ دِينَهُ وَعِبَادَهُ ، وَأَنْ يَّكُونَ دَاعِيًا إِلَى اللهِ وَإِمَامًا مِّنْ أَئِمَّةِ الْهُدَىٰ .

٣- قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ

وَأَرَادَتِ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ أَمْرًا وَأَرَادَ اللهُ أَمْرًا ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَصْلَحَةِ عِبَادِهِ ، فَإِذَا هِيَ تَلِدُ أُنْثَىٰ ، فَتَحْزَنُ

لِذٰلِكَ وَتَغْشَاهُ الْكَآبَةُ ، وَلَكِنَّ الْوَلِيدَةَ لَمْ تَكُنْ كَكُلِّ أُنْثَى ، بَلْ كَانَتْ أَقْوَى عَلَى الْعِبَادَةِ ، وَأَعْلَى هِمَّةً فِي الطَّاعَاتِ وَالْخَيْرَاتِ ، مِنْ كَثِيرٍ مِّنَ الْفِتْيَانِ ، وَإِذَا قَدَّرَ اللّٰهُ - لِحِكْمَةٍ يَعْلَمُهَا - أَنْ تَكُونَ أُنْثَى، وَالنُّبُوَّةُ لَا يَضْطَلِعُ بِأَعْبَائِهَا إِلَّا الرِّجَالُ ، فَقَدْ قَدَّرَ اللّٰهُ أَنْ تَكُونَ أُمًّا لِنَبِيٍّ صَالِحٍ يَكُونُ لَهُ شَأْنٌ :

« إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرٰنَ : رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي، إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٥ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ : رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى، وَاللّٰهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ، وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى ، وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطٰنِ الرَّجِيمِ ٥ » ،

٤ - عِنَايَةُ اللّٰهِ بِالْفَتَاةِ الصَّالِحَةِ

وَكَانَتْ فِي كَفَالَةِ سَيِّدِنَا زَكَرِيَّا لِمَكَانَتِهَا مِنْهُ ، وَفِي رِعَايَةِ اللّٰهِ تَعَالَى ، فَكَانَ اللّٰهُ يُكْرِمُهَا بِالْأَثْمَارِ وَالْفَوَاكِهِ فِي غَيْرِ أَوَانِهَا وَفِي غَيْرِ مَكَانِهَا ، تَأْكُلُ مِنْهَا

مَا تَشَاءُ وَتَهَبُ مِنْهَا مَا تَشَاءُ .

« فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ، كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ ، وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ، قَالَ : يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ، قَالَتْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ »

٥ - إِلْهَامًا مِّنَ الرَّبِّ الرَّحِيمِ

وَأَلْهَمَ اللَّهُ زَكَرِيَّا - وَهُوَ نَبِيٌّ مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَمِنَ الْعُقَلَاءِ الْأَذْكِيَاءِ - أَنَّ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُكْرِمَ فَتَاةً صَالِحَةً أَخْلَصَتْ أُمُّهَا فِي النَّذْرِ بِهَا وَالدُّعَاءِ لَهَا ، وَأَخْلَصَتْ هِيَ فِي الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ ، بِفَوَاكِهَ سَابِقَةٍ لِّزَمَانِهَا أَوْ مُتَأَخِّرَةٍ عَنْ أَوَانِهَا ، يَقْدِرُ أَنْ يَهَبَ شَيْخًا قَدْ طَعَنَ فِي السِّنِّ وَعَلَاهُ الشَّيْبُ وَأَثَّرَ فِيهِ الْوَهَنُ ، وَلَدًا قَدِ انْقَطَعَ مِنْهُ الرَّجَاءُ لِعُلُوِّ السِّنِّ وَعَقْرِ الزَّوْجِ ، وَجَرَتِ الْعَادَةُ أَنْ لَّا يُولَدَ لِرَجُلٍ فِي هَذِهِ الْحَالِ .

فَجَاشَتْ نَفْسُهُ ، وَعَلَتْ هِمَّتُهُ ، وَانْتَعَشَ

الْأَمَلُ ، وَقَوِيَتِ الثِّقَةُ بِالرَّبِّ ، فَفَاضَ لِسَانُهُ بِدُعَاءٍ أَمَّنَتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ ، وَتَحَرَّكَتْ بِهِ رَحْمَةُ اللّٰهِ ، وَكَانَ كُلُّهُ إِلْهَامًا مِّنَ الرَّبِّ الرَّحِيمِ ، وَتَقْدِيرًا مِّنَ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ :

« هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ج قَالَ : رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ج إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ه » .

٦- بِشَارَةُ وَلَدٍ

وَأَجَابَ اللّٰهُ دُعَاءَهُ ، وَتَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ الْبِشَارَةُ بِوَلَدٍ صَالِحٍ قَرُبَ زَمَانُ وِلَادَتِهِ .

وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ، فَطَلَبَ أَمَارَةً عَلَىٰ إِمْكَانِ هٰذَا الْحَدَثِ الْكَبِيرِ وَقُرْبِ ظُهُورِهِ ، فَقَالَ :

« رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ط قَالَ : آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ط وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ه » .

فَالْقَادِرُ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْلُبَ خَوَاصَّ الْأَشْيَاءِ ، فَيَجْعَلُ اللِّسَانَ النَّاطِقَ أَبْكَمَ لَا يَسْتَطِيعُ

أَنْ يَتَحَرَّكَ بِكَلِمَةٍ ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يُودِعَ مَا شَاءَ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ مَا شَاءَ مِنْ خَوَاصَّ ، وَالْقَوِيُّ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْنَعَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعْطِيَ

٧- آيَاتُ اللّٰهِ وَقُدْرَتُهُ

وَظَهَرَتْ آيَاتُ اللّٰهِ وَقُدْرَتُهُ فِي جِسْمِهِ ثُمَّ فِي بَيْتِهِ وَأُسْرَتِهِ ، وَوُلِدَ يَحْيَىٰ فَقَرَّتْ بِهِ عَيْنُهُ ، وَاشْتَدَّ بِهِ أَزْرُهُ ، وَعَاشَتْ بِهِ دَعْوَتُهُ . وَاسْمَعُوا الْقُرْآنَ يَحْكِي هٰذِهِ الْقِصَّةَ تَارَةً فِي إِيجَازٍ وَطَوْرًا فِي تَفْصِيلٍ ، فَيَقُولُ :

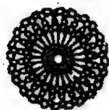
« وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ : رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْوٰرِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ز وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَ أَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۥ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسٰرِعُونَ فِي الْخَيْرٰتِ وَ يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَّ رَهَبًا ۥ وَكَانُوا لَنَا خٰشِعِينَ ٥ » .

٨- يَحْيَىٰ يَضْطَلِعُ
بأعباء الدعوة

وَيُولَدُ يَحْيَىٰ فَيَكُونُ قُرَّةَ عَيْنٍ لِّأَبَوَيْهِ ، وَخَلِيفَةً

لِوَالِدِهِ الْعَظِيمِ ، فَيَضْطَلِعُ بِأَعْبَاءِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ وَإِلَى الدِّينِ الْخَالِصِ ، وَتَظْهَرُ فِيهِ آثَارُ النَّجَابَةِ مُنْذُ الصِّغَرِ ، فَيُقْبِلُ عَلَى الْعِلْمِ بِشَغَفٍ وَهُوَ غُلَامٌ ، وَيَتَحَلَّى بِالصَّلَاحِ وَالتَّقْوَى وَهُوَ شَابٌّ ، وَيَمْتَازُ عَنْ أَقْرَانِهِ فِي الْحُبِّ وَالْحَنَانِ وَالْبِرِّ بِالْأَبَوَيْنِ ، يُشَارُ فِي ذَلِكَ إِلَيْهِ بِالْبَنَانِ ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لَهُ :

« يَٰيَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ، وَآتَيْنَٰهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ٥ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ، وَكَانَ تَقِيًّا ٥ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ٥ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ٥ » .



قِصَّةُ سَيِّدِنَا عِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

١- قِصَّةٌ خَارِقَةٌ لِلْعَادَةِ

وَيَجِيءُ دَوْرُ سَيِّدِنَا عِيسَىٰ ، وَهُوَ آخِرُ الرُّسُلِ قَبْلَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهِيَ قِصَّةٌ تَجَلَّتْ فِيهَا إِرَادَةُ اللّٰهِ الْقَاهِرَةُ ، وَقُدْرَةُ اللّٰهِ الْمُطْلَقَةُ ، وَحِكْمَةُ اللّٰهِ الدَّقِيقَةُ ؛ فَأَمْرُهُ كُلُّهُ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ ، وَوِلَادَتُهُ خَارِقَةٌ لِلْعَادَةِ ، حَارَتْ فِيهَا الْأَلْبَابُ ، وَنُسِخَتْ فِيهَا الْقَوَانِينُ الطَّبِيعِيَّةُ ، وَشَقَّ الْإِيمَانُ بِهَا وَالتَّصْدِيقُ لَهَا عَلَىٰ مَنْ آمَنَ بِالْقَوَانِينِ الطَّبِيعِيَّةِ كَإِلٰهٍ لَا يَزُولُ وَلَا يَحُولُ ، وَآمَنَ بِالتَّجْرِبَةِ وَالْمُشَاهَدَةِ وَبِأَحْكَامِ الطِّبِّ وَالطَّبِيعَةِ كَنَامُوسٍ لَا يَتَغَيَّرُ وَلَا يَتَبَدَّلُ ، وَجَهِلَ قُدْرَةَ اللّٰهِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَغَلَبَتْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ، وَإِرَادَتَهُ الَّتِي لَا يَحُولُ دُونَهَا شَيْءٌ ، « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ ۝ » .

وَهَانَ هٰذَا الْإِيمَانُ عَلَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ كَإِلٰهٍ قَادِرٍ مُّرِيدٍ، خَالِقٍ صَانِعٍ، «هُوَ اللّٰهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝» .

وَآمَنَ بِخَلْقِ آدَمَ مِنْ مَّاءٍ وَّطِينٍ، وَّمِنْ غَيْرِ أُمٍّ وَّأَبٍ، وَوِلَادَةٌ مِّنْ أُمٍّ مِّنْ غَيْرِ أَبٍ أَهْوَنُ وَأَيْسَرُ لِلتَّصْدِيقِ مِنْ وِلَادَةٍ مِّنْ غَيْرِ أُمٍّ وَّأَبٍ، وَلِذٰلِكَ يَقُولُ اللّٰهُ تَعَالَىٰ: «إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللّٰهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ ۝» .

٢- أَمْرُكُلُّهُ عَجَبٌ

وَأَمْرُ سَيِّدِنَا عِيسَىٰ كُلُّهُ عَجَبٌ، وَقَدْ كَانَتْ وِلَادَتُهُ فِي عَصْرٍ بَلَغَتْ فِيهِ «يُونَانُ» أَوْجَهَا فِي الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ وَالرِّيَاضِيَّةِ، وَكَانَتْ لِلطِّبِّ دَوْلَةٌ وَّصَوْلَةٌ .

٣- خُضُوعُ الْيَهُودِ

لِلْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ

وَخَضَعَ الْيَهُودُ - وَهُمْ أُمَّةٌ كَثُرَ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ -

لِلعُلومِ السَّائِدَةِ في عَصْرِهِمْ ، وَاشْتَهَرَ فِيهِمْ إِنْكَارُ الرُّوحِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا ، وَاعْتَادُوا أَنْ يُفَسِّرُوا كُلَّ مَا يَرَوْنَهُ تَفْسِيرًا مَادِّيًا ، فَلَا وُجُودَ لِشَيْءٍ عِنْدَهُمْ وَلَا إِمْكَانَ لِحَادِثٍ إِلَّا بِالسَّبَبِ وَالعِلَّةِ ؛ فَكَانَتِ الْمُعْجِزَاتُ الَّتِي أَكْرَمَ اللَّهُ بِهَا سَيِّدَنَا عِيسَىٰ عِلَاجًا لِلْعَقْلِ الْمَادِّيِّ الضَّيِّقِ ، وَحَاجَةَ الْعَصْرِ وَنِدَاءَ الزَّمَانِ .

وَأَمْعَنَ الْيَهُودُ فِي الْوُقُوفِ عِنْدَ الظَّاهِرِ وَالتَّمَسُّكِ بِالْقُشُورِ دُونَ اللُّبَابِ ، وَالتَّشَبُّثِ بِالْمَظَاهِرِ دُونَ الْحَقِيقَةِ ، وَغَلَوْا فِي تَقْدِيسِ الْعُنْصُرِ وَالدَّمِ ، وَفِي حُبِّ الْمَالِ وَالْمَادَّةِ ، وَانْهَمَكُوا فِي الْحَيَاةِ إِنْهِمَاكًا زَائِدًا وَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَجَفَّتْ طِبَاعُهُمْ ، فَلَا يَرِقُّونَ لِلضَّعِيفِ وَلَا يَعْطِفُونَ عَلَى الْفَقِيرِ ، وَيُعَامِلُونَ مَنْ لَا يَجْرِي فِي عُرُوقِهِ الدَّمُ الْإِسْرَائِيلِيُّ مُعَامَلَةَ الْحَيَوَانَاتِ وَالْكِلَابِ أَوِ الْجَمَادَاتِ الَّتِي لَا رُوحَ فِيهَا ، وَيَخْضَعُونَ لِلْأَقْوِيَاءِ الْأَغْنِيَاءِ ، وَيَتَجَبَّرُونَ عَلَى الصِّغَارِ الْفُقَرَاءِ ، وَيَقْسُونَ عِنْدَ الْقُدْرَةِ ، وَيَلِينُونَ عِنْدَ الْعَجْزِ ، قَدْ وَلَّدَتْ فِيهِمْ حَيَاةُ الذُّلِّ

وَالْعُبُودِيَّةِ الَّتِي عَاشُوهَا فِي الْحُكْمِ الرُّومَانِي الَّذِي دَامَ مُدَّةً طَوِيلَةً فِي سُورِيَا وَفَلَسْطِينَ ، النِّفَاقَ وَالْخُنُوعَ ، وَالتَّحَيُّلَ وَالدَّهَاءَ ، وَاللُّجُوءَ إِلَى الْمُؤَامَرَةِ وَالسِّرِّيَّةِ .

٤- اسْتِخْفَافٌ وَتَمَرُّدٌ

وَوَلَّدَ فِيهِمُ الِاسْتِخْفَافُ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالِاجْتِرَاءُ عَلَيْهِمْ ، حَتَّى بِالْقَتْلِ ، وَالتَّعَامُلُ بِالرِّبَا ، وَالْعَبَثُ بِالتَّعَالِيمِ الدِّينِيَّةِ ، الْغِلْظَةَ وَالْجَفَافَ ، وَضَعْفَ الْعَاطِفَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَتَجَرَّدَتْ قُلُوبُ كَثِيرٍ مِّنْهُمْ مِّنْ حُبِّ اللّٰهِ الْخَالِصِ ، وَالرَّحْمَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ - مَهْمَا كَانَ أَصْلُهُ وَفَصْلُهُ - وَاحْتِرَامِ الْإِنْسَانِيَّةِ .

وَكَادُوا يَنْسَوْنَ مَعَانِيَ الْمُؤَاسَاةِ وَالْمُسَاوَاةِ ، وَالْبِرِّ وَالْكَرَمِ ، وَكَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالنُّبُوءَاتِ وَالرِّسَالَاتِ ، وَقَدْ كَثُرَتْ فِيهِمُ الْأَنْبِيَاءُ ، وَزَخَرَتْ صُحُفُهُمْ بِأَخْبَارِهِمْ ، وَلٰكِنَّهُمْ قَدْ أَصْبَحُوا فِي الزَّمَنِ الْأَخِيرِ لَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا بِمَا وَافَقَ هَوَاهُمْ ، وَأَيَّدَهُمْ فِي سِيرَتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ ، أَمَّا

مَنِ انْتَقَدَهُمْ وَحَاسَبَهُمْ ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الدِّينِ الصَّحِيحِ وَالحَقِّ الصَّرِيحِ وَإِصْلَاحِ الحَالِ ، عَادَوهُ وَحَارَبُوهُ ، وَكَانَتْ عِنْدَهُمْ جَرَاءَةٌ عَلَى البَهْتِ وَالافْتِرَاءِ ، وَكِتْمَانِ الْحَقِّ ، وَشَهَادَةِ الزُّورِ .

٥ - نِعْمَةُ اللّٰهِ
عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ

وَكَانُوا أُمَّةً تَمْتَازُ عَنِ الأُمَمِ المُعَاصِرَةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، بِعَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ ، وَذٰلِكَ سِرُّ تَفْضِيلِهِمْ عَلَى غَيْرِهِمْ ، وَقَدْ قَالَ اللّٰهُ تَعَالَى :

« يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ » .

٦ - نُكْرَانٌ لِلْجَمِيلِ

وَلٰكِنْ تَسَرَّبَتْ إِلَيْهِمْ بِحُكْمِ الاخْتِلَاطِ وَمُجَاوَرَةِ الشُّعُوبِ الوَثَنِيَّةِ المُشْرِكَةِ ، وَبِطُولِ العَهْدِ بِتَعَالِيمِ الأَنْبِيَاءِ ، عَقَائِدُ زَائِفَةٌ ، وَعَادَاتٌ جَاهِلِيَّةٌ ، وَقَدْ عَبَدُوا

الْعِجْلَ فِي مِصْرَ، وَبَالَغُوا فِي تَقْدِيسِ عُزَيْرٍ وَتَعْظِيمِهِ، حَتَّىٰ تَخَطَّوْا بِهِ حُدُودَ الْبَشَرِيَّةِ، وَبَلَغَتْ بِهِمُ الْوَقَاحَةُ إِلَىٰ أَنْ نَسَبُوا بَعْضَ أَعْمَالِ الشِّرْكِ وَالْوَثَنِيَّةِ، وَأَعْمَالِ السِّحْرِ وَالْكُفْرِ، وَالْأَفْعَالِ الشَّنِيعَةِ، إِلَىٰ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَمْ يَتَّقُوا اللَّهَ فِيهِمْ .

٧- زَهْوٌ وَدَلَالٌ

وَكَانُوا رَغْمَ كُلِّ ذٰلِكَ شَدِيدِي الْإِدْلَالِ بِالنَّسَبِ، شَدِيدِي الِاعْتِمَادِ عَلَىٰ الْأَمَانِي وَالْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ: «نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ» . وَيَقُولُونَ: «لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً» .

٨- وِلَادَةُ الْمَسِيحِ تَتَحَدَّىٰ الْمَحْسُوسَ الْمَعْرُوفَ

وَكَانَتْ وِلَادَةُ الْمَسِيحِ وَحَيَاتُهُ، وَدَعْوَتُهُ وَمَعِيشَتُهُ، تَحَدِّيًا لِّكُلِّ ذٰلِكَ، تَحَدِّيًا لِّلْمَحْسُوسِ الْمُقَرَّرِ، تَحَدِّيًا لِّلْأَعْرَافِ الشَّائِعَةِ، وَالْعَادَاتِ الْمُتَّبَعَةِ،

وَالْقَوَانِينِ الْمَرْسُومَةِ ، وَالْمُثُلِ الْعُلْيَا الَّتِي يُؤْمِنُ بِهَا الْيَهُودُ ، وَالْعَادَاتِ الَّتِي يَتَنَافَسُونَ فِيهَا ، وَيَتَقَاتَلُونَ عَلَيْهَا ؛ فَوُلِدَ مِنْ طَرِيقَةٍ غَيْرِ مَأْلُوفَةٍ ، وَكَلَّمَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ ، وَنَشَأَ فِي أَحْضَانِ أُمٍّ فَقِيرَةٍ مُتَبَتِّلَةٍ ، وَعَاشَ فِي جَوٍّ مَلِيءٍ بِالطَّعْنِ وَالْقَدْحِ ، بَعِيدٍ عَنْ مَظَاهِرِ الْعَظَمَةِ وَالْغِنَى ، يُجَالِسُ الْفُقَرَاءَ ، وَيُؤَاكِلُهُمْ ، وَيَحْنُو عَلَيْهِمْ ، وَيُوَاسِي الضُّعَفَاءَ وَالْغُرَبَاءَ ، وَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ فَقِيرٍ وَغَنِيٍّ ، وَحَاكِمٍ وَمَحْكُومٍ ، وَشَرِيفٍ وَوَضِيعٍ .

٩ - مُعْجِزَاتُ الْمَسِيحِ

وَأَكْرَمَهُ اللهُ بِالنُّبُوَّةِ وَالْوَحْيِ ، وَآتَاهُ الْإِنْجِيلَ ، وَأَيَّدَهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، وَالْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَةِ ، يَشْفِي اللهُ بِهِ الْمَرْضَى الَّذِينَ عَجَزَ عَنْ مُدَاوَاتِهِمُ الْأَطِبَّاءُ ، وَيُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ، وَيُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ ، وَيَخْلُقُ لِلنَّاسِ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ، فَيَنْفُخُ فِيهِ ، فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ ، وَيُنَبِّئُ بِمَا يَأْكُلُهُ النَّاسُ

وَيَدَّخِرُونَهُ فِي بُيُوتِهِمْ .

فَيُبِيدُ بِكُلِّ ذَلِكَ الثِّقَةَ بِمَا جَاءَ فِي التَّوْرَاةِ مِنْ خَبَرِ مُعْجِزَاتِ الرُّسُلِ ، وَأَخْبَارِ الْقُدْرَةِ الإِلٰهِيَّةِ ، وَيُجَدِّدُ الإِيمَانَ بِهَا ، وَيُكَذِّبُ الْعِبَادَةَ لِلْحِسِّ وَالتَّجْرِبَةِ ، فَقَامَ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ سَعَةَ الْقُدْرَةِ الإِلٰهِيَّةِ ، وَقُوَّةَ الإِرَادَةِ الرَّبَّانِيَّةِ ، فَقَرَّرُوا أَنْ لاَ جَدِيدَ وَأَنْ لاَ مَزِيدَ فِيمَا عَلِمُوهُ وَشَاهَدُوهُ .

١٠- دَعْوَتُهُ إِلَى الدِّين وَتَكْذِيبُهُ الْيَهُودَ

وَكَذَّبَ الْيَهُودَ فِي كَثِيرٍ مِمَّا تَخَيَّلُوهُ وَغَلَوْا فِيهِ ، وَحَرَّمُوا مَا أَحَلَّهُ اللّٰهُ ، وَأَحَلُّوا مَا حَرَّمَهُ اللّٰهُ ، يَدْعُوهُمْ إِلَى رُوحِ الدِّينِ وَلُبَابِهِ ، وَأَصْلِهِ وَحَقِيقَتِهِ ، وَالْحُبِّ لِلّٰهِ حُبًّا يَغْلِبُ عَلَى كُلِّ حُبٍّ ، وَالرَّحْمَةِ عَلَى الإِنْسَانِيَّةِ وَاحْتِرَامِهَا ، وَالْمُوَاسَاةِ لِلْفُقَرَاءِ ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ ، وَرَفْضِ كُلِّ مَا دَخَلَ عَلَى دِينِ الأَنْبِيَاءِ مِنْ عَادَاتٍ جَاهِلِيَّةٍ ، وَعَقَائِدَ بَاطِلَةٍ .

١١- اليَهُودُ يَنْصِبُونَ لَهُ الْحَرْبَ

وَشَقَّ كُلُّ ذٰلِكَ عَلَى الْيَهُودِ ، وَنَصَبُوا لَهُ الْحَرْبَ. وَرَمَوْهُ عَنْ قَوْسٍ وَّاحِدَةٍ ، وَّرَشَقُوهُ بِالتُّهَمِ وَالْقَذَائِفِ ، وَتَنَاوَلُوهُ بِالسَّبِّ الْقَبِيحِ وَالْقَوْلِ الْبَذِيِّ ، وَتَنَاوَلُوا أُمَّهُ مَرْيَمَ الْبَتُولَ بِالْقَذْفِ وَالطَّعْنِ ، وَعَاكَسُوهُ وَطَارَدُوهُ، وَأَمَاجُوا لَهُ الْأَوْبَاشَ ، وَسَدُّوا فِي وَجْهِهِ الطُّرُقَ .

١٢- قِصَّةُ عِيسَىٰ فِي الْقُرْآنِ

ثُمَّ أَرَادُوا قَتْلَهُ وَالتَّخَلُّصَ مِنْهُ ، فَحَمَاهُ اللّٰهُ وَرَدَّ كَيْدَهُمْ عَلَيْهِمْ ، وَرَفَعَهُ إِلَيْهِ وَكَرَّمَهُ ، اِقْرَؤُوا قِصَّتَهُ فِي الْقُرْآنِ :

« إِذْ قَالَتِ الْمَلٰٓئِكَةُ يٰمَرْيَمُ إِنَّ اللّٰهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ لا اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْاٰخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَّمِنَ الصّٰلِحِينَ ۝ قَالَتْ : رَبِّ أَنّٰى يَكُونُ

لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ، قَالَ: كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُن فَيَكُونُ ۝ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۝ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۝ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۝ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۝ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ، هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ: مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ: نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ ۝ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ۝ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝ إِذْ قَالَ اللَّهُ: يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ

وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ز وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّٰلِمِينَ ۝ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَٰتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ: كُن فَيَكُونُ ۝ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ۝»

١٣- سِيرَتُهُ وَدَعْوَتُهُ

فِي الْقُرْآنِ

وَاقْرَأُوا وَصْفَهُ تَعَالَىٰ لِسِيرَتِهِ وَدَعْوَتِهِ، فِي قَوْلِهِ:

«قَالَ: إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ۖ آتَانِيَ الْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ۖ وَأَوْصَٰنِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي ز وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝ وَالسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝».

١٤- صِرَاعٌ قَدِيمٌ

وَوَقَعَ لِسَيِّدِنَا عِيسَى مَا وَقَعَ لِلأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ، فَابْتَعَدَ عَنْهُ الرُّؤَسَاءُ وَالزُّعَمَاءُ، وَهَجَرَهُ الأَغْنِيَاءُ وَالأَقْوِيَاءُ، وَرَأَوْا فِي الإِيمَانِ بِهِ وَاتِّبَاعِهِ غَضَاضَةً وَعَيْبًا، وَشَقَّ عَلَيْهِمُ التَّنَازُلُ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ، مِنْ رِئَاسَةٍ وَزِعَامَةٍ، وَامْتِيَازٍ وَسِيَادَةٍ، وَصَدَقَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى:

«وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا: إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ○ وَقَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ○».

١٥- إِيمَانُ عَامَّةِ النَّاسِ وَفُقَرَائِهِمْ

وَلَمَّا يَئِسَ عِيسَى مِنْهُمْ، وَشَاهَدَ فِيهِمُ الْعِنَادَ وَالْكُفْرَ، وَرَأَى أَنَّهُمْ قَدْ جَحَدُوا بِمَا جَاءَ بِهِ، مِنْ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمُعْجِزَاتٍ بَاهِرَاتٍ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ، وَاسْتَصْغَرُوهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ صَاحِبَ حَوْلٍ وَطَوْلٍ، أَقْبَلَ

عَلَىٰ عَامَّةِ النَّاسِ وَفُقَرَائِهِمْ ، وَقَدْ لَانَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَصَفَتْ نُفُوسُهُمْ ، لِأَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ بِكَدِّ يَمِينِهِمْ وَعَرَقِ جَبِينِهِمْ ، لَا يَتَفَاخَرُونَ بِنَسَبٍ ، وَلَا يَتَطَاوَلُونَ بِجَاهٍ وَمَنْصِبٍ ، فَآمَنَتْ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ، فِيهَا الْقَصَّارُونَ ، وَفِيهَا صَيَّادُو الْأَسْمَاكِ ، وَفِيهَا أَهْلُ الْحِرَفِ وَالْمِهَنِ .

١٦- نَحْنُ أَنْصَارُ اللّٰهِ

فَآمَنُوا بِالْمَسِيحِ ، وَالْتَفُّوا حَوْلَهُ ، وَوَضَعُوا أَيْدِيَهُمْ فِي يَدِهِ ، وَقَالُوا : «نَحْنُ أَنْصَارُ اللّٰهِ» يَقُولُ اللّٰهُ تَعَالَىٰ :

«فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ : مَنْ أَنْصَارِيَ إِلَى اللّٰهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ : نَحْنُ أَنْصَارُ اللّٰهِ ج آمَنَّا بِاللّٰهِ ج وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝ رَبَّنَآ آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشّٰهِدِينَ ۝» .

١٧- سِيَاحَتُهُ وَدَعْوَتُهُ

وَكَانَ سَيِّدُنَا عِيسَىٰ يَقْضِي أَكْثَرَ أَوْقَاتِهِ فِي

السِّيَاحَةِ ، وَالْانتِقَالِ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ ، يَدْعُو بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَىٰ اللّٰهِ ، وَيَهْدِي خِرَافَهُمُ الضَّالَّةَ إِلَىٰ رَبِّهَا وَ سَيِّدِهَا ، وَيَتَّفِقُ لَهُ فِي هٰذِهِ الْجَوْلَاتِ وَالرَّحْلَاتِ الْيُسْرُ وَالْعُسْرُ ، وَالضِّيقُ وَالرَّخَاءُ ، وَيَتَحَمَّلُ ذٰلِكَ صَابِرًا ، وَيَقْبَلُ هٰذَا شَاكِرًا ، وَيَصْبِرُ عَلَىٰ الْجُوعِ ، وَيَجْتَزِئُ بِمَا يَسُدُّ الرَّمَقَ .

١٨- الحَوَارِيُّونَ

يَطْلُبُونَ مَائِدَةَ السَّمَاءِ

أَمَّا الْحَوَارِيُّونَ فَلَمْ يَكُونُوا بِمَنْزِلَتِهِ مِنَ الصَّبْرِ وَالْجَلَدِ وَالتَّقَشُّفِ وَالزَّهَادَةِ ، وَأَصَابَهُمْ شَيْءٌ مِّنْ ذٰلِكَ ، فَطَلَبُوا مِنْ سَيِّدِنَا عِيسَىٰ أَنْ يَسْأَلَ اللّٰهَ أَنْ يُنْزِلَ لَهُمْ مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ يَأْكُلُونَ مِنْهَا وَيَشْبَعُونَ بَعْدَ جُوعٍ ، وَيَنْعَمُونَ بَعْدَ عَنَاءٍ .

١٩- سُوءُ أَدَبٍ

وَلَمْ يَكُونُوا مُتَأَدِّبِينَ فِي سُؤَالِهِمْ ، فَقَالُوا : «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ»

وَلَمْ يُعْجِبْ عِيسَىٰ سُؤَالُهُمْ ، وَكَرِهَ الْأُسْلُوبَ الَّذِي خَاطَبُوا بِهِ. وَالْأَنْبِيَاءُ جَمِيعًا يُطَالِبُونَ أُمَمَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ ، وَيُكَلِّفُونَهَا إِيَّاهُ ، وَلَيْسَتِ الْمُعْجِزَاتُ مَخَارِيقَ يُسَلَّىٰ بِهَا الْأَطْفَالُ ، وَيُلْهَىٰ بِهَا الْأَغْمَارُ ، وَإِنَّمَا هِيَ آيَاتٌ مِّنَ اللهِ يُظْهِرُهَا عَلَىٰ أَيْدِي أَنْبِيَائِهِ حِينَ يَشَاءُ ، وَتَقُومُ بِهَا حُجَّةُ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ ، فَلَا يُمْهَلُونَ بَعْدَ ظُهُورِهَا وَإِنْكَارِهَا.

٢٠- تَحْذِيرُ قَوْمِهِ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ

لِذٰلِكَ خَافَ سَيِّدُنَا عِيسَىٰ عَلَيْهِمْ ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ ، وَنَهَاهُمْ عَنِ امْتِحَانِ اللهِ تَعَالَىٰ ؛ فَهُوَ أَعْلَىٰ وَأَجَلُّ مِنْ ذٰلِكَ .

٢١- إِلْحَاحٌ وَإِصْرَارٌ

وَلٰكِنَّ الْحَوَارِيِّينَ تَشَبَّثُوا بِسُؤَالِهِمْ ، وَذَكَرُوا أَنَّهُمْ جَادُّونَ فِي هٰذَا السُّؤَالِ ، لَا يَقْصِدُونَ امْتِحَانًا ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ اطْمِئْنَانًا ، وَلِيَكُونَ ذٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلْأَجْيَالِ الْقَادِمَةِ ،

وَقِصَّةً تُحْكَى وَتُرْوَى عَلَى مَرِّ الأَيَّامِ، فَتَكُونُ دَلِيلاً عَلَى صِدْقِ هٰذَا الدِّينِ، وَمَنْزِلَةِ الْمُؤْمِنِينَ الأَوَّلِينَ، وَالْحَوَارِيِّينَ الصَّادِقِينَ .

٢٣- الْقُرْآنُ يَحْكِي الْقِصَّةَ

وَ دَعُوا الْقُرْآنَ يَحْكِي هٰذِهِ الْقِصَّةَ :

«إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ ؕ قَالَ: اتَّقُوا اللّٰهَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۝ قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشّٰهِدِينَ ۝ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللّٰهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَاٰخِرِنَا وَاٰيَةً مِّنْكَ ج وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرّٰزِقِينَ ۝ قَالَ اللّٰهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ج فَمَنْ يَّكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعٰلَمِينَ ۝»



٢٣ - الْيَهُودُ يُحَاوِلُونَ التَّخَلُّصَ مِنْ سَيِّدِنَا عِيسَىٰ

وَعِيلَ صَبْرُ الْيَهُودِ ، وَفَاضَتْ كَأْسُ عِدَائِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، فَأَرَادُوا التَّخَلُّصَ مِنْ سَيِّدِنَا عِيسَىٰ ، فَرَفَعُوا قَضِيَّتَهُ إِلَىٰ الْحَاكِمِ الرُّومِيِّ وَقَالُوا : إِنَّهُ رَجُلٌ ثَائِرٌ فَوْضَوِيٌّ مَرَقَ مِنْ دِينِنَا ، وَاسْتَهْوَىٰ شَبَابَنَا ، فَفُتِنُوا بِهِ ، وَفَرَّقَ أَمْرَنَا ، وَسَفَّهَ أَحْلَامَنَا ، وَشَغَلَ بَالَنَا .

٢٤ - أُسْلُوبُ النَّاقِمِينَ وَالسِّيَاسِيِّينَ

وَهُوَ خَطَرٌ عَلَىٰ الدَّوْلَةِ ، لَا يَخْضَعُ لِنِظَامٍ ، وَلَا يَتَقَيَّدُ بِقَانُونٍ ، وَلَا يُعَظِّمُ عَظِيمًا ، وَلَا يُقَدِّسُ قَدِيمًا ، وَهُوَ رَجُلٌ ثَوْرِيٌّ ، إِذَا لَمْ يُكَفْ شَرُّهُ فَإِنَّهُ يَتَفَاقَمُ ، وَلَا تُسْتَصْغَرُ الشَّرَارَةُ مَهْمَا كَانَتْ تَافِهَةً .

٢٥ - مَكْرٌ وَدَهَاءٌ

وَكَانَ كَلَامًا مَمْلُوءًا بِالْمَكْرِ وَالدَّهَاءِ ، مَصْبُوغًا

بِالصِّبْغَةِ السِّيَاسِيَّةِ ، وَكَانُوا يَعْرِفُونَ أَنَّ الْجَانِبَ الدِّينِيَّ لَايُثِيرُ الْحُكَّامَ وَلَا يُهِيجُهُمْ ، فَقَدْ كَانَ مِنْ سِيَاسَتِهِمْ أَنْ لَّا يَتَدَخَّلُوا فِي أُمُورِ الْيَهُودِ الدِّينِيَّةِ ، وَلِذٰلِكَ خَلَطُوا الْكَلَامَ بِالسِّيَاسَةِ .

٢٦ـ مُشْكِلَةٌ

وَكَانَ مِنَ الصَّعْبِ أَنْ يَّتَحَقَّقَ الْحُكَّامُ الْأَجَانِبُ الْمُشْرِكُونَ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ ، وَيَعْرِفُوا أَغْرَاضَ الْيَهُودِ ، وَسَبَبَ عِدَائِهِمْ لِلْمَسِيحِ ، وَكَانُوا فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ عَنْ ذٰلِكَ بِالْأُمُورِ الْإِدَارِيَّةِ ، وَلٰكِنِ اشْتَدَّ إِلْحَاحُ الْيَهُودِ ، وَطَالَ تَرَدُّدُهُمْ فَأَرَادُوا التَّخَلُّصَ مِنْ هٰذِهِ الْقَضِيَّةِ الَّتِي أَصْبَحَتْ حَدِيثَ الْبَلَدِ .

٢٧ـ سَيِّدُنَا الْمَسِيحُ فِي الْمَحْكَمَةِ

وَكَانَ ذٰلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بَعْدَ الْعَصْرِ لَيْلَةَ السَّبْتِ وَكَانَ الْيَهُودُ لَا يَعْمَلُونَ شَيْئًا يَوْمَ السَّبْتِ ، وَكَانَ يَوْمَ عُطْلَةٍ وَّكَفٍّ عَنِ الْعَمَلِ ، فَكَانُوا حَرِيصِينَ كُلَّ الْحِرْصِ

عَلَىٰ أَنْ يَصْدُرَ الْحُكْمُ قَبْلَ غُرُوبِ شَمْسِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَيَسْتَرِيحُوا مِنْ أَمْرِ الْمَسِيحِ، فَيَنَامُوا هَادِئِي الْبَالِ، وَيُصْبِحُوا نَاعِمِي الْبَالِ، لَا يُزْعِجُهُمْ شَيْءٌ.

وَقَدْ ضَاقَ الْحَاكِمُ بِالْقَضِيَّةِ ذَرْعًا، وَلَيْسَتْ لَهُ فِيهَا رَغْبَةٌ وَلَا لِأُمَّتِهِ فِيهَا مَصْلَحَةٌ، وَقَدِ احْتَشَدَ الْيَهُودُ لِسَمَاعِ الْحُكْمِ، وَهُمْ بَيْنَ صَائِحٍ وَهَاتِفٍ، وَمُتَنَدِّرٍ وَمُتَهَكِّمٍ، وَالْحَاكِمُ مُتَضَايِقٌ، وَالْوَقْتُ قَصِيرٌ، وَالشَّمْسُ قَدْ مَالَتْ لِلْغُرُوبِ، فَأَصْدَرَ الْحُكْمَ عَلَيْهِ بِالْقَتْلِ صَلْبًا.

٢٨ - الْقَانُونُ الْجِنَائِيُّ

فِي ذٰلِكَ الْعَصْرِ

وَكَانَ الْقَانُونُ الْجِنَائِيُّ فِي ذٰلِكَ الْعَصْرِ يُوجِبُ أَنْ يَحْمِلَ الْمَحْكُومُ عَلَيْهِ بِالشَّنْقِ، صَلِيبَهُ الَّذِي يُصْلَبُ عَلَيْهِ، وَكَانَ الْمَشْنَقُ بَعِيدًا كَمَا هِيَ الْعَادَةُ فِي الْبِلَادِ الْمُتَمَدِّنَةِ، وَكَانَ الْجَمْعُ حَاشِدًا يَتَسَاقَطُ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ، وَكَانَ رِجَالُ الشُّرْطَةِ - وَأَكْثَرُهُمْ مِنَ

الْأَجَانِبِ - مَأْمُورِينَ مُوَظَّفِينَ لَا رَغْبَةَ لَهُمْ فِي هٰذِهِ الْقَضِيَّةِ وَكَانَ الْإِسْرَائِيلِيُّونَ أَشْبَاهًا عِنْدَهُمْ يَلْتَبِسُ عَلَيْهِمْ أَمْرُهُمْ، فَلَا يُمَيِّزُونَ بَيْنَهُمْ، شَأْنَ الْأَجَانِبِ فِي نَظَرِ الْأَجَانِبِ، وَكَانَ الْوَقْتُ مَسَاءً قَدْ مَدَّ الظَّلَامُ رُوَاقَهُ، وَكَانَ بَعْضُ الْيَهُودِ وَالْمُتَحَمِّسِينَ السُّفَهَاءِ مِنَ الشَّبَابِ يَنْهَالُونَ عَلَى السَّيِّدِ الْمَسِيحِ، وَيَتَدَافَعُونَ عَلَيْهِ، يَسُبُّونَهُ، وَيُعَيِّرُونَهُ، وَيُرِيدُونَ إِيذَاءَهُ وَإِهَانَتَهُ.

٢٩- عِيسَىٰ يَتَحَمَّلُ الْأَذَىٰ

وَكَانَ السَّيِّدُ الْمَسِيحُ لَاغِبًا، قَدْ أَضْنَاهُ الْجُهْدُ، وَطُولُ الْوُقُوفِ فِي الْمَحْكَمَةِ، وَتَحَمُّلُ الْأَذَىٰ، وَكَانَ الصَّلِيبُ ثَقِيلًا، وَقَدْ كُلِّفَ حَمْلَهُ، فَكَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُسْرِعَ فِي الْمَشْيِ.

٣٠- تَدْبِيرٌ إِلٰهِيٌّ

وَهُنَا أَمَرَ الشُّرْطِيُّ الْمُوَكَّلُ بِهِ، شَابًّا إِسْرَائِيلِيًّا

بِحَمْلِ الْعُودِ ، وَكَانَ أَشَدَّ زُمَلَائِهِ حَمَاسَةً ، وَأَكْبَرَهُمْ سَفَامَةً ، وَأَحْرَصَهُمْ عَلَى إِيذَاءِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ ، وَ مُبَادَرَةً لَهُ ، حَتَّى يَنْتَهِيَ الْأَمْرُ سَرِيعًا ، وَيَتَخَلَّصَ مِنْ هٰذِهِ الْمَسْئُولِيَّةِ الْمُرْهِقَةِ .

٣١- وَلٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ

وَهٰكَذَا وَصَلَ الْمَوْكِبُ إِلَى بَابِ الْمَشْنَقِ ، فَتَقَدَّمَ شُرْطَةُ الْمَشْنَقِ ، وَتَسَلَّمُوا الْأَمْرَ مِنَ الشُّرْطَةِ الْمَدَنِيِّينَ ، وَرَأَوُا الشَّابَّ يَحْمِلُ الصَّلِيبَ ، وَاخْتَلَطَ الْحَابِلُ بِالنَّابِلِ ، وَكَثُرَ الضَّجِيجُ ، فَأَخَذَ بِيَدِ الشَّابِّ الْحَامِلِ لِلصَّلِيبِ ، وَهُوَ لَا يَشُكُّ فِي أَنَّهُ هُوَ الْمَحْكُومُ عَلَيْهِ بِالصَّلْبِ ، وَهُوَ يَصِيحُ وَيَضِجُّ ، وَيُعْلِنُ بَرَاءَتَهُ وَأَنَّهُ لَا شَأْنَ لَهُ بِالْحُكْمِ وَالصَّلْبِ ، وَإِنَّمَا كُلِّفَ حَمْلَ الْعُودِ سُخْرَةً وَظُلْماً ، وَشُرْطَةُ الْمَشْنَقِ لَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى ذٰلِكَ ، وَلَا يَفْهَمُونَ لُغَتَهُ ، لِأَنَّهُمْ مِّنَ الرُّومِ وَالْيُونَانِ الْأُمَّةِ الْحَاكِمَةِ .

٣٢- تَنْفِيذُ حُكْمٍ

وَكُلُّ مُجْرِمٍ يَتَنَصَّلُ مِنْ جَرِيمَتِهِ، وَكُلُّ مُجْرِمٍ لَهُ صِيَاحٌ وَعَوِيلٌ، وَأَخَذُوهُ وَنَفَّذُوا فِيهِ الْحُكْمَ، وَالْيَهُودُ وَاقِفُونَ عَلَى بُعْدٍ، وَالدُّنْيَا لَيْلٌ وَظَلَامٌ، وَهُمْ يَظُنُّونَ كُلَّ الظَّنِّ أَنَّ الْمَصْلُوبَ هُوَ الْمَسِيحُ(١).

٣٣- رَفْعُ عِيسَى إِلَى السَّمَاءِ

أَمَّا سَيِّدُنَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَقَدْ نَجَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ كَيْدِ الْيَهُودِ وَرَفَعَهُ إِلَيْهِ مُكَرَّمًا مُطَهَّرًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا.

٣٤- الْقُرْآنُ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْقِصَّةِ

وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْيَهُودِ:

---

(١) استندنا فى تفاصيل هذه القصة، والملابسات والأجواء التى أحاطت بها، إلى الوثائق المسيحية التاريخية والقانونية التى ظهرت ودُوِّنت في العصر الأخير

«وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ۝ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ج وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ، مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ج وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً ۝ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ۝» .

وَهُوَ فِي السَّمَاءِ كَمَا يُرِيدُهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ، وَقَدْ كَانَتْ وِلَادَتُهُ عَجَباً ، وَحَيَاتُهُ عَجَباً ، وَأَمْرُهُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَىٰ آخِرِهِ عَجَبٌ ، خَارِقٌ لِّلْعَادَةِ ، مُثْبِتٌ لِّلْقُدْرَةِ الْإِلٰهِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ .

٣٥- نُزُولُ عِيسَىٰ عِنْدَ الْقِيَامَةِ

وَسَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ حِينَ يُرِيدُهُ اللَّهُ ، وَيُقِيمُ الْحُجَّةَ عَلَىٰ مَنْ فَرَّطُوا فِيهِ وَأَفْرَطُوا ، مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ ، وَيَنْصُرُ الْحَقَّ ، وَيَكْبِتُ أَهْلَ الْبَاطِلِ ، كَمَا أَخْبَرَ بِهِ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَوَرَدَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ

وَالْأَحَادِيثُ الْمُتَوَاتِرَةُ ، وَاعْتَقَدَهُ الْمُسْلِمُونَ فِي كُلِّ عَصْرٍ، وَصَدَقَ اللّٰهُ الْعَظِيمُ :

«وَإِنْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا» .

٣٦- بِشَارَتُهُ بِبِعْثَةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَلَمْ يُكْمِلْ سَيِّدُنَا الْمَسِيحُ مُهِمَّتَهُ فِي الدَّعْوَةِ لِشِدَّةِ مُحَارَبَةِ الْيَهُودِ وَكَيْدِهِمْ لَهُ ، وَضَعْفِهِ وَقِلَّةِ أَنْصَارِهِ، فَوَدَّعَ النَّاسَ ،وَامْتَثَلَ أَمْرَ رَبِّهِ ، وَبَشَّرَ النَّاسَ بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِهِ ، يُكْمِلُ مَا بَدَأَهُ ، وَيُعَمِّمُ مَا خَصَّصَهُ، وَبِهِ تَتِمُّ نِعْمَةُ اللّٰهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ ، وَتَقُومُ حُجَّتُهُ عَلَىٰ خَلْقِهِ:

«وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يٰبَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللّٰهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ، وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ» .

٣٧- مِنَ التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ إِلَىٰ عَقِيدَةٍ غَامِضَةٍ

وَمِنْ غَرَائِبِ تَارِيخِ الْأَدْيَانِ ، وَمِمَّا تَدْمَعُ لَهُ

الْعُيُونُ، وَتَذُوبُ لَهُ الْقُلُوبُ، أَنَّهُ تَحَوَّلَتْ دَعْوَةُ الْمَسِيحِ إِلَى التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ وَالدِّينِ السَّهْلِ السَّائِغِ الْبَعِيدِ عَنْ كُلِّ غُمُوضٍ وَتَعْقِيدٍ، وَتَحْرِيفٍ وَتَأْوِيلٍ بَعِيدٍ، الدَّعْوَةُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَالسُّؤَالِ مِنْهُ، وَالِالْتِجَاءِ إِلَيْهِ، وَحُبِّهِ الْخَالِصِ، إِلَى عَقِيدَةٍ غَامِضَةٍ، وَفَلْسَفَةٍ مُعَقَّدَةٍ، فَغَلَا فِيهِ أَتْبَاعُهُ وَأَطْرَوْهُ إِطْرَاءً خَرَجَ بِهِ مِنْ حُدُودِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى حُدُودِ الْأُلُوهِيَّةِ؛ فَقَالُوا: «الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ». وَقَالُوا: «اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا». وَقَالُوا: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ». وَجَعَلُوا مِنَ الْإِلَهِ الْوَاحِدِ الصَّمَدِ الَّذِى لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، أُسْرَةً مُؤَلَّفَةً مِنْ ثَلَاثَةِ أَعْضَاءٍ، كُلُّهُمْ إِلَهٌ؛ فَقَالُوا: الرَّبُّ وَالِابْنُ وَرُوحُ الْقُدُسِ، وَاعْتَقَدُوا فِي مَرْيَمَ أُمِّ الْمَسِيحِ، وَعَامَلُوهَا بِمَا يَبْلُغُ بِهَا إِلَى دَرَجَةِ التَّقْدِيسِ وَالْعِبَادَةِ؛ فَقَالُوا: «أُمُّ اللَّهِ». وَشَاعَتْ لَهَا تَمَاثِيلُ وَصُوَرٌ فِي الْكَنَائِسِ، يَخْضَعُ لَهَا النَّصَارَى بِالسُّجُودِ وَالدُّعَاءِ، وَالنَّذْرِ وَالِانْحِنَاءِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُنْكِرًا مَا اعْتَقَدُوهُ، مُسْتَبْشِعًا مَا فَعَلُوهُ:

«مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ، كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ، انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝» .

٣٨- عِيسَىٰ يَدْعُو
إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ

وَقَدْ دَعَا كَغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ ؛ فَجَاءَ مِنْ قَوْلِهِ فِي الْإِنْجِيلِ : «مَكْتُوبٌ لِلرَّبِّ إِلٰهِكَ تَسْجُدُ ، وَلَهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ» (متى ٤: ١٠) وَقَوْلُهُ: «مَكْتُوبٌ لِلرَّبِّ إِلٰهِكَ تَسْجُدُ ، وَلَهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ» (لوقا ٤: ٨) وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ :

«مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ

وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ».

٣٩- القُرْآنَ يُصَرِّحُ بِدَعْوَةِ عِيسَىٰ

وَقَدْ نَقَلَ الْقُرْآنُ - وَهُوَ الْكِتَابُ الْمُصَدِّقُ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَالْمُهَيْمِنُ عَلَيْهِ - مِنْ إِعْلَانِ سَيِّدِنَا عِيسَىٰ بِالتَّوْحِيدِ الْخَالِصِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، فِي أُسْلُوبٍ صَرِيحٍ وَاضِحٍ لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ:

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، وَقَالَ الْمَسِيحُ: يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ، إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَٰهُ النَّارُ، وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ».

٤٠- مَنْزِلَةُ التَّوْحِيدِ فِي دَعْوَتِهِ

وَقَالَ فِي أُسْلُوبٍ جَمِيلٍ بَلِيغٍ يَتَذَوَّقُهُ كُلُّ مَنْ عَرَفَ مَنْزِلَةَ التَّوْحِيدِ وَسِيرَةَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ،

وَ مَا طُبِعُوا عَلَيْـهِ مِنْ مَعْرِفَةِ اللّٰهِ تَعَالَىٰ ، وَالْخُضُوعِ لَـهُ، وَالرَّهْبَـةِ مِنْـهُ :

«لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّـهِ وَلَا الْمَلَٰٓئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ۝ فَأَمَّا الَّذِيـنَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا

٤١- مَشْهَدٌ رَائِعٌ مِنْ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ

وَقَدْ صَوَّرَ الْقُرْآنُ فِي بَلَاغَتِهِ وَإِعْجَازِهِ ، مَشْهَدًا مِّنْ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ الرَّائِعَةِ ، يَتَبَرَّأُ فِيـهِ سَيِّدُنَا عِيسَىٰ عَمَّا تَقَوَّلَهُ النَّاسُ فِيـهِ ، وَعَامَلُوهُ بِهِ، وَيُوضِحُ دَعْوَتَهُ فِي قُوَّةٍ وَصِدْقٍ ، وَيُدِينُ فِي هَـٰذِهِ الْقَضِيَّةِ الْغُلَاةَ مِنْ أُمَّتِهِ ، وَأَنَّهُمْ هُمُ الْمَسْئُولُونَ

وَحَدَهُمْ عَنْ هٰذِهِ الْجَرِيمَةِ ، اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ ، وَاسْتَشْعِرُوا جَلَالَ الْمَوْقِفِ وَرَوْعَةَ الْمَشْهَدِ :

«وَإِذْ قَالَ اللّٰهُ : يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ : اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّٰهِ ، قَالَ : سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِ : أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ قَالَ اللّٰهُ : هٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ، لَهُمْ جَنّٰتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰرُ خٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ، رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝».

٤٢ - مِنْ عَقِيدَةٍ غَامِضَةٍ إِلَىٰ وَثَنِيَّةٍ سَافِرَةٍ

وَانْتَقَلَ دُعَاةُ الْمَسِيحِيَّةِ إِلَىٰ أَوْرُبَّا بِدَافِعٍ مِّنْ عِنْدِهِمْ(١) وَقَدْ شَاعَتْ فِيهَا الْوَثَنِيَّةُ السَّافِرَةُ مِنْ زَمَانٍ، وَغَاصَتْ فِيهَا إِلَىٰ الْأَذْقَانِ، فَكَانَ الْيُونَانُ وَثَنِيِّينَ، وَقَدْ تَصَوَّرُوا صِفَاتِ اللّٰهِ فِي شَكْلِ آلِهَةٍ شَتَّىٰ، نَحَتُوا لَهَا تَمَاثِيلَ، وَبَنَوْا لَهَا مَعَابِدَ وَهَيَاكِلَ؛ فَلِلرِّزْقِ إِلٰهٌ، وَلِلرَّحْمَةِ إِلٰهٌ، وَالْقَهْرِ إِلٰهٌ، وَكَانَتِ الرُّومِيَّةُ عَرِيقَةً فِي الْوَثَنِيَّةِ وَالتَّمَسُّكِ بِالْخُرَافَاتِ، وَقَدِ امْتَزَجَتِ الْوَثَنِيَّةُ بِلَحْمِهَا وَدَمِهَا، وَجَرَتْ مِنْهَا مَجْرَىٰ الرُّوحِ وَالدَّمِ، وَكَانَ الرُّومَانُ يَعْبُدُونَ آلِهَةً شَتَّىٰ، فَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَيْهِمُ النَّصْرَانِيَّةُ، وَتَنَصَّرَ قُسْطَنْطِينُ الْكَبِيرُ سَنَةَ ٣٠٦م، وَاحْتَضَنَ الدِّينَ الْجَدِيدَ وَتَبَنَّاهُ وَجَعَلَهُ دِينَ الدَّوْلَةِ الرَّسْمِيَّ، بَدَأَتِ النَّصْرَانِيَّةُ تَأْخُذُ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ مِنَ الْعَقَائِدِ الْوَثَنِيَّةِ وَالتَّقَالِيدِ الرُّومِيَّةِ وَالْفَلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ، وَتَدْنُو إِلَيْهَا رُوَيْدًا رُوَيْدًا،

(١) لأن المسيح لم يأمرهم بذلك، فقد صرّح بأنه أرسل لخراف إسرائيل الضالة.

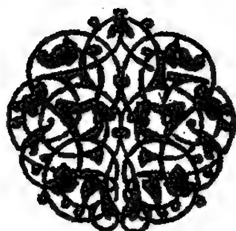
وَصَارَتْ تَفْقِدُ أَصَالَتَهَا النَّبَوِيَّةَ ، وَبَسَاطَتَهَا الشَّرْقِيَّةَ ، وَحَمَاسَتَهَا التَّوْحِيدِيَّةَ ، وَدَخَلَ فِيهَا بَعْضُ الْمُنَافِقِينَ فَطَعَّمُوهَا بِعَقَائِدِهِمُ الْقَدِيمَةِ وَذَوْقِهِمُ الْوَثَنِيِّ ، وَنَشَأَ مِنْ ذَٰلِكَ دِينٌ جَدِيدٌ ، تَتَجَلَّىٰ فِيهَا النَّصْرَانِيَّةُ وَالْوَثَنِيَّةُ سَوَاءٌ بِسَوَاءٍ .

وَكَذَٰلِكَ سَارَتِ النَّصْرَانِيَّةُ الزَّاحِفَةُ الْفَاتِحَةُ عَلَىٰ دَرْبٍ غَيْرِ الدَّرْبِ الَّذِي سَلَكَ الْمَسِيحُ بِهَا عَلَيْهِ ، وَدَعَا إِلَيْهِ ، وَكَانَتْ كَسَالِكِ طَرِيقٍ يَضِلُّ عَنِ الطَّرِيقِ - عَنْ قَصْدٍ أَوْ عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ - فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ ، فَيُوَاصِلُ سَيْرَهُ عَلَىٰ طَرِيقٍ لَا يَلْتَقِي بِالطَّرِيقِ الْأَوَّلِ إِلَىٰ الْأَخِيرِ .

وَلِهَٰذِهِ الْحِكْمَةِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا مَنْ قَرَأَ تَارِيخَ هَٰذِهِ الدِّيَانَةِ ، وَصَفَهُمُ اللهُ بِالضَّلَالِ حِينَ وَصَفَ الْيَهُودَ بِالْمَغْضُوبِيَّةِ ، فَقَالَ عَلَىٰ لِسَانِ الْمُسْلِمِينَ:

« اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۝ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝ »

وَكَانَتْ فِي ذَٰلِكَ مَأْسَاةٌ لِأُورُبَّا ، وَمَأْسَاةٌ لِلْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي قَادَتْهَا أُورُبَّا زَمَنًا طَوِيلًا ، وَلَا تَزَالُ مُسَيْطِرَةً عَلَيْهَا وَمُتَحَكِّمَةً فِيهَا . «وَلِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ» .



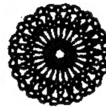
فهرس المواضيع

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة	
التنبيه	

الموضوع	رقم الصفحة
(١١) الملكة تأتي خاضعة	١٩
(١٢) قصر عظيم من زجاج	٢٠
(١٣) وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين	٢١
(١٤) القرآن يحكى قصة سليمان	٢٢
(١٥) وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا	٢٥
قصة سيدنا أيوب وسيدنا يونس عليهما السلام	
(١) قصة أيوب نمط آخر من القصص	٢٦
(٢) صبر أيوب	٢٧
(٣) محنة ومنحة	〃
(٤) قصة يونس وحكمتها	٢٨
(٥) يونس بين قومه	٢٩
(٦) يونس في بطن الحوت	٣٠
(٧) واستجاب الله دعاءه	٣١
قصة سيدنا زكريا عليه السلام	
(١) دعاء زكريا لولد صالح	٣٢

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	الصفحة



پاکستان میں کچھ پبلشرز ہمارا ادارہ (مجلس نشریاتِ اسلام کراچی) کی درسی کتب غیر قانونی طور پر شائع کررہے ہیں، جو ایک قانونی اور اخلاقی طور پر جرم ہے ہم یہ خط ثبوت کے طور پر شائع کررہے ہیں کہ درسی کتب کی اجازت صرف مجلس نشریاتِ اسلام کراچی کو ہے۔

Phone [redacted]2948



مکتبہ دارالعلوم ندوۃ العلماء. لکھنؤ

NADWA BOOK DEPOT

P. O. Box 93, LUCKNOW.

No-----

Date 3/3/77

۱۲ ربیع الاول ۹۷ھ

مکتبہ دارالعلوم ندوۃ العلماء محض ایک تجارتی ادارہ نہیں بلکہ ہندوستان کی تعلیم درسگاہ دارالعلوم ندوۃ العلماء لکھنؤ کا ایک اشاعتی مرکز ہے۔ یہاں کی تمام درسی کتب مثلاً قصص النبیین، القراءۃ الراشدہ اور معلم الانشاء و دیگر کتب کی اشاعت کی اجازت اب تک پاکستان کے کسی بھی تاجر کو نہیں دی گئی تھی، لیکن بعض اہم وجوہات کی بنا پر اس کی طباعت کے مکمل اختیارات جناب مولوی فضل ربی ندوی صاحب پروپرائٹر مجلس نشریات اسلام ناظم آباد کراچی کو دیدیئے گئے ہیں۔

انکے علاوہ کسی بھی تاجر کو مکتبہ کی کتابوں کی طباعت کی قطعاً اجازت نہیں ہے۔ مسلمانوں کا اخلاقی فرض ہوگا کہ ایک اسلامی دینی ادارہ کا تعاون فرمائیں اور اپنی حسب ضرورت کتب کیلئے مندرجہ ذیل پتہ سے رابطہ قائم کریں۔

محمد علی ندوی

منیجر مکتبہ دارالعلوم ندوۃ العلماء
لکھنؤ